مكانة الماء
فى عقائد الأمم ونحلهم

دكتوره
هويدا فؤاد الطويل
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية
جامعة الأزهر

أولا مقدمة:-

١- أهمية الماء من واقع الآيات القرآنية:

لما خلق الله – سبحانه وتعالى – الأرض والسماء وأراد أن يخلق الإنسان علي هذه الأرض خلق له (الماء) الذي به قوام حياته وحياة من حوله من الكائنات الحية .

قال الله ﷻ: " **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ** "(١) فالماء هو مادة الحياة وإكسيرها السحري الذي لولاه لاستحالت الحياة علي سطح هذا الكوكب . ولقد ذكر الله تعالى الماء في القرآن الكريم منكرا (ماء) ثلاث وثلاثين مرة وذكره معرفا (الماء) ست عشرة مرة .

وامتن الله علي المؤمنين أن أنزل عليهم الماء الذي به قوام حياتهم قال تعالى: "**هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَبَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " (٢) ووصف الله الماء بأنه مبارك أي أنه كثير العطاء قال الله تعالى:" وَنَزَّلْنَاً مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَرَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ " (٣) وذكر الله تعالى أن إنزال الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها هو دليل وآية علي وجود الله قال تعالى: " **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** " (٤)

---

(١) الأنبياء الآية ٣٠

(٢) النحل الآية ١٠ ، ١١

(٣) ق الآية ٩

(٤) البقرة الآية ١٦٤

وأمتن الله علي الكافرين بأن جعل من الماء كل شيء حي، وذكر الله الماء علي أنه من نعيم الجنة وأن أهل النار يعذبون بحرمانهم منه قال تعالى:" **وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** " [1] كما ذكر الله الماء على أنه جند من جنود الله يهلك به الظالمين قال تعالى:"**حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**" [2]

كما ذكر الله إحدى فوائد الماء وهي التطهير قال تعالى: " **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ** " [3]

وأمرنا الله بالوضوء عند كل صلاة والاغتسال بالماء عند كل جنابة قال تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ** " [4]

٢- أهمية الماء من واقع النظريات العلمية:-

ولقد ظهرت العديد من النظريات لتفسير أصل الماء علي سطح الكرة الأرضية من هذه النظريات نظيرة المياه الكونية المنشأ وتتلخص هذه النظرية في أن الماء أتى إلي الأرض من الفضاء الخارجي [5] وهناك نظرية المياه أرضية المنشأ وتتلخص في

(١) الأعراف الآية ٥٠ ، ٥١

(٢) هود الآية ٤٠ أنظر أيضا سورة القمر الآيات ٩ :١٦

(٣) الأنفال ١١ راجع سورة الفرقان ٤٨

(٤) المائدة الآية ٦

(٥) ولقد ذكر الله تعالي في القرآن هذه الظاهرة أنه سبحانه أنزل من السماء الماء ، وذكر مادة الماء منكرة دون تعريف ليدل علي أن عموم جنس الماء نزل من السماء وذلك في أكثر من عشرين آية (راجع البقرة ٢٢ ،١٦٤)

أن الصخور المكونة للطبقة الواقعة بين نواة الأرض والقشرة الأرضية كانت تنصهر في بعض المواقع(١)

كما كان موضوع العثور علي الماء في مقدمة أهداف الرحلات الاستكشافية الفضائية للإنسان منذ نهاية الخمسينات وذلك لسبب واحد هو أن الماء يعني الحياة والصحة وترتفع نسبة المياه في تركيب أجسام الإنسان والحيوانات إلي ٧٠ % (٢)

وإلي أكثر من ذلك في النباتات حيث يشكل الماء ٩٥% من بعضها وحسب تقديرات العلماء فإن حجم المياه الذي يغطي الكرة الأرضية يبلغ ٥.١ مليار كيلو متر مربع .

ولنقترب من أهم مظاهر استخدام الماء لدي المسلمين – مثلا – كعملية الوضوء لنرى كيف أثبت العلم الحديث بعد الفحص الميكروسكوبي للمزرعة الميكروبية التي عملت للمنتظمين في الوضوء ولغير المنتظمين أن اللذين يتوضئون باستمرار قد ظهر الأنف عند غالبيتهم نظيفا طاهر خاليا من الميكروبات، في حين أعطت أنوف من لا يتوضئون مزارع ميكروبية ذات أنواع متعددة وبكميات كبيرة من الميكروبات الكروية العنقودية الشديدة العدوى والكروية السبحية السريعة الانتشار والميكروبات العضوية لذلك شرع الاستنشاق بصورة متكررة ثلاث مرات في كل وضوء . أما بالنسبة للمضمضة فقد ثبت إنها تحفظ الفم والبلعوم من الالتهابات ومن تقيح اللثة، وتقي الأسنان من النخر بإزالة الفضلات الطعامية التي تبقى فيها إلي غير ذلك في بقية مظاهر الوضوء الذي تجلي الإعجاز العلمي في شرعيته (٣) .

---

(١) وقد أشار القرآن إلي هذه النظرية انظر سورة النازعات ٣٠، ٣١ (وأنا اعتقد أن كلا النظريتين صحيح فبعض الماء كان منشاة من الأرض والبعض الآخر كان منشاة من السماء)

٧- حيث يشكل الماء ٩٠% من الجهاز المعقد ومصدر التفكير عند الإنسان ألا وهو الدماغ ويؤلف الماء أيضا ٧٠% من مكونات القلب و ٨٦% من الرئتين والكبد و ٨٣% من الكليتين و ٧٥% من عضلات الجسم المختلفة و ٨٣ % من الدماء .

Http / www.almvak.com /wk/archive/index.nhn/t.fohtmi.

(٢) أنظر : عماد زكى البارودي : الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص ١٥٩ :١٦١

٣- الترابط الروحي والمادي بين إنسان هذه الكون والطبيعة المحيطة به:-

إن الإنسان هو ذلك العالم الصغير، الكبير بمفارقاته وتلاوينه وقوته وضعفه وتأثيره وتأثره بمن حوله وبالطبيعة ككل، وهو وحدة لا تقبل الفصل في هذا الكون الفسيح، يؤثر فيه ويتأثر به، هنالك ترابط روحي لا بل حتى مادي ما بين الإنسان والطبيعة التي يعيش في كنفها . فهذا الاتصال والترابط أو التعايش ما بين الإنسان والطبيعة بجميع مظاهرها وعناصرها المختلفة كان له تأثير كبير جدا بل كان هو المجال الواسع الذي ترعرعت فيه بذرات الفكر الإنساني . إن هذا التلاحق بين الإنسان والطبيعة أدى إلي خلق وتكوين أروع وأعظم الأفكار الإنسانية التي أنبتت شيئا فشيئا إلي أن وصلت إلي ما هي عليه الآن .

وتأخذنا هذه الأسطورة السحرية (الماء) إلي أعماق سحيقة في التاريخ الإنساني والتي عاصرته وهو يبني حضارته وفكرة الديني منذ بدايات طفولته الفكرية إلي الآن . فالماء ملازم عقلا وفكرا وطقسا للإنسان .

ولا أعتقد بوجود أي امرئ علي هذا الكوكب الأرضي ناضج عقليا، لا يعرف ما للماء من أهمية كبيرة في حياة الكائنات الحية، فحتى الإنسان في تاريخه المبكر (الإنسان القديم) ومن جملة اكتشافاته الأولية شعر وأدرك بغرائزه ما لهذا العنصر من أهمية له ولحياته الخاصة، فكانت عبادة الماء وتقديسه من الأفكار الدينية المنتشرة في كثير من مناطق وحضارات العالم القديم .

٤- من أين آتت فكرة أهمية الماء ؟

حين انقطع الوحي وغاب الدين وجدت الأساطير القديمة التي حاولت أن تقدم تفسيرا غير مسلم للوجود ونشأة الكون . من خلق هذا الكون ؟ وكيف خلقه ؟ ومن أي شيء خلقه ؟وانتهي الفكر الأسطوري عند السومرين وهم أقدم الحضارات في المنطقة إلي أن الماء هو أصل الوجود والحياة، ومن الماء خرجت الحياة وعمرت الأرض .

يقول الباحث العراقي د/ فاضل على عبد الواحد ملخصا الاعتقاد السومري: " في البدء كانت مياه البحر (في السومرية الآلهة نمو (nammu)) . والأرجح أن السومريين تصوروا أن المياه هذه كانت أزلية ومن مياه البحر الأزلية هذه ولد جيل

كوني يمثل السماء والأرض متحدين، السماء في السومرية ((an) وعدت عنصرا مذكرا) (والأرض (ki) عنصرا مؤنثا) ونتيجة لإتحادهما ولد إله الهواء (انليل) [١] .

ولقد انتقلت هذه الأسطورة الخاصة بأزلية الماء إلي الحضارة البابلية في قصة الخلق البابلية المعروفه باسم (أنيوما اليليش) فتقول: " عند ما في الأعالي لم تكن سماء وفي الأسفل لم يكن أرض لم يكن من الآلهة سوى (ابسو) أبوهم (ومموتعامة) التي حملت بهم جميعا يمزجون أمواههم (جمع ماء) معا ..... [٢] ففكرة الميلاد المائي هذه نجدها تتكرر فيما بعد، ففي الأسطورة السورية نجد (يم) المياه الأولى وقد انتصر عليه الإله (بعل) وشرع بعد انتصاره في تنظيم العالم .

وفي الأسطورة المصرية كان رع أولا إله يخرج من المياه الأولى وهو الذي أنجب فيما بعد بقية الآلهة .

وفي الأسطورة الإغريقية نجد (اوقيانوس) هو المياه الأولى والإله البدئي الذي نشا عنه الكون [٣]

وفي التوراة العبرانية – أيضا – نجد المياه الأولى ورح الرب فوقها قبل التكوين " وكانت الأرض خربة وخالية وروح الرب يرف فوق وجه الماء " [٤]

كما أثبت لنا القرآن الكريم وهو خاتمة الوحي الذي ابتدأ بسيدنا آدم وجود المياه البدائية إذ قال:" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء " [٥]

وأخيراً: وبغض النظر عن الممارسات والطقوس الكهنوتية المصاحبة للماء، فأننا نجد وبجلاء وعلي مر الزمن ومهما اختلفت الأماكن، أن الماء شغل حيزا كبيرا من العقل الروحي والديني لكثير من معتقدات البشر وأديانهم . وأي باحث في مقارنة

(١) أنظر من سومر إلي التوراة ص ١٩٤

(٢) فراس السواح : مغامرة العقل الأولى ص٥٦ ، وانظر أيضا د/ فاضل عبد الواحد ص ١٩٤

(٣) انظر المرجع السابق ص٣٦

(٤) التكوين ١

(٥) سورة هود الآية ٧

الأديان سيدرك عند تتبعه للنصوص الدينية الموقع المتميز الذي احتله الماء بها . فلا تكاد تخلو عقيدة دينية من فكرة تقديس الماء بطريقة معينة سواء فكرا أو طقسا وهذا يرجع ما للماء من أهمية كونية، وما له ارتباط وثيق بحياة البشر سواء أكانوا أفرادا، أم قبائل أو شعوبا وأمما .

بعد المقدمة السابقة يجب أن نوضح أن للماء مكانتين مختلفتين المكانة الأولى ترتبط بالمفهوم المطلق للماء لدى عامة الناس كعنصر طبيعى به سر الحياة .

والمكانة الثانية: تتعلق بالمعنى الخاص له عند بعض اتباع الأديان من حيث كونه "مقدساً " وهو المراد عند الإطلاق فى بحثى هذا .

ثانيا: نماذج حية لتقديس الماء عبر الفكر الديني

١- بعض النماذج من الحضارات القديمة لظاهرة تقديس الماء:

حيث يأخذنا هذا العنصر موغلا في التاريخ الميثلوجي للحضارات القديمة، ومن واقع علماء التاريخ والجغرافيا البشرية إن هناك ترابط وثيق بين نشأة الحضارات والماء فالحضاره المصرية ارتبطت " بنهر النيل [١] وذلك عندما تأمل المصريون الخصب الدائم الممنوح لأرضيهم الطيبة اعتبروا إن صانع كل ذلك هو النيل والشمس .... وأن الآلهة المرتبطة بكل من هاتين الظاهريتين هي صاحبة اليد الأولى لحركتهما ومسيرتهما وتأثيرهما في حياة الأرض والناس، وقد ارتبط النهر الخالد بالإله (حابي) إلي جانب آلهة أخرى محلية هي التي تحمل الطمي الخصب والنبات في الفيضان . ومع ابتداء وصول مياه الفيضان في يوليو كان يظهر النجم (سيروس) مع شروق الشمس [٢] .

كما كان التلميذ المرشح للكهانة في مصر إذا نحج في الامتحان القاسي الذي يجري له، يخلع ملابسه ويستحم (يتطهر) في الماء ويطيبونه بالعطور ثم يرتدي زى رجال الدين، ويجب أن يقوم الكاهن بطقوس التطهير بنفسه وللمعبد . ويقوم الفرعون بمراسيم تبخير المعمود وتطهيره بسكب المياه المقدسة عليه . وقد عرف المصريون القدماء الأحواض المقدسة المملوءة بالمياه الخاصة للتطهير [٣] .

وقد ارتبطت – أيضا – حضارة سبأ بالمياه الموسمية وسد مآرب [٤]، كما ارتبطت حضارة العرب بالآبار أينما ظهرت ومنها " بئر زمزم " وتفجر الماء العذب منه .

فالماء وبحق موغل في تاريخ الحضارات القديمة، فالبابليون ومن قبلهم السومريون والأكاديون كانوا يرون في الماء مصدر الحياة . حيث كان السكان الأوائل لوادي الرافدين، لاسيما في المناطق الجنوبية، ترى أن الماء يدخل في كل جانب من

(١) انظر سليم حسن : موسوعة مصر القديمة ج ١ ص١٢ عصر ما قبل التاريخ
(٢) انظر سليمان مظهر : قصة الديانات ص ٣٠ ، ١٣١
(٣) أنظر المرجع السابق نفس الصفحة
(٤) انظر د/ محمد حسنين هيكل حياة محمد ص ٩١

جوانب حياتهم: غذاؤهم من الزرع والصيد في – الأهوار والأنهار، بيوتهم تبني مما تنبته الأهوار . الطمي (الغرين) الذي كان يحمله النهران يوفر لهما الأرض التي يزرعون ويسكنون المياه تتهددهم بفيضانات يحفر الفرد فتنبثق المياه، ويقفز إلى الماء ليخرج نظيفا مما علق به فالماء ينطوي علي أسرار عديدة: حيثما يولي المرء وجهه فثمة الماء ..وفي الماء إذن تكمن القوة التي تتحكم في حياة العالم .ولا عجب [١] .

فقد انتهي فكر السومريين إلي أن الماء هو أصل الوجود والحياه، فعندهم (ومن الماء خرجت الحياة وعمرت الأرض والسماء)، كما كان في الزمن السومري إله يدعي (أيا) إله المياه وهو يجلس في مقصورة من الماء الجاري، وترى الليدى دراور [٢] أن البركة الطقسية ذات العلاقة (أيا) إله المياه كانت تشكل جزاء من العقائد السومرية في (اريدو) المدينة .

وقد ظل سكان بلاد الرافدين يقدسون الماء ويضعونه بمنزلة عظيمة فاعتبروه أداة تطهير . ولقد كان من تقاليد الطقوس اليومية للمعبد البابلي أن يجري غسل تماثيل الآلهة ورش المعبد بالماء الطاهر . كما كانت الحضارة الرافدينية القديمة تري أن الآلهة (انانا) قد استعادت الحياة بتناولها طعام الحياة وماء الحياة بعد أن أوشكت علي الموت [٣] .

كما اعتبر الإغريق القدماء أن بعض الأنهر والبحار مقدسة، كما منحو المياه آلهة مسئولة عن الخير والخصوبة والكوارث . ويؤكد ذلك ول ديورانت: " إذ يري أن القدماء كانوا يرون في أعماق الآبار والينابيع والأنهار العذبة قوة خفية مؤثرة تمنح حياة تلك المواضع قدسية خاصة [٤] .

كما كانت قطرات الماء الساقطة من السماء إلي الأرض علي شكل مطر، والذي يسبب إنماء وإرواء الأرض هذه العملية كان لها مغزى كبير وعميق في التفكير

(١) انظر عزيز سباهى ص ٦٣

(٢) الصابئة المندائيون . ترجمة نعيم بدوى وغضبان الرومي ص ٢١٩

(٣) صمويل كريمر : ص ١٧٨: ١٨٢

(٤) قصة الحضارة مجلد ٢ ج١ ص ٣٢١ وما بعدها ، وسيد أحمد الناصري الإغريق تاريخهم وحضارتهم ص ٢٢

الإنساني . فهذه القطرات تمثل في الأساطير الدينية القديمة كالمني الذي يطلقها الذكر (المتمثل في السماء الواهبة) لتخصيب الأنثى (المتمثلة في الأرض المستلمة) فهذه عملية حياتية في عمق فلسفة الأديان ولها دور كبيرجدا في فكر الإنسان وتأملاته [١] .

وفي الواقع إننا لا نزال نرى هذا التقديس باقيا حتى الآن عند كثير من الشعوب . فمعروف في اندونيسيا " أن الإنسان القاطن في الجزء الجنوبي من شاطئ بحر (جاوا) يعرف عبادة غريبة عبارة عن عبادة البحر أو حراسة البحر . ويعتبر الحارس المجهول الذي يقضي وقته في التمعن في البحر مقدسا تقدم له القرابين في الأحيان المعروفة "[٢] وفي الشاطئ الشرقي (لسومطرة) الشمالية باندونيسيا يعتقدون في وهم خيالي أن البحر والأرض لها حارس مقدس من الغيب وفي ساعات معينة يقيم الناس وليمة طعام (jamu) ويلقون بعضه مع عظم جاموس ويلقونها في وسط البحر حتى يطعم الجن الذي يعكر صفو البحر، وفي منطقة (منتاواي mintawi) يحمل الناس أطفالهم إلي النهر ليقيموا مودة وصلة بينهم وبين الماء والروح التي تحرس الماء، والتي تسمي في لغتهم (كيمينانkameinan) والتي تفسر في عرفهم بالأم الحنون.

وفي جاوا jawa تغتسل الزوجة البكر الحامل لأول مرة عندما يتم حملها سبعة أشهر في سبعة أنهر، ومثل هذا الصنيع ما يحدث في الهند من مثل هذه التقاليد والعادات .

ففي كل عام يبذل الهندوس كثيرا من الجهد للاستحمام في نهر (جانجا) ذلك النهر الذي يزعمون أنه مقدس، ومعني الاستحمام في هذا النهر في عرف الهندوس غفران الذنوب الظاهرة والباطنة [٣] .

وعندما يحسب الإنسان الهندي حساباته ويظن أنه قارب الموت فأنه يذهب إلي مدينة (بنارس) وذلك حتى يغتسل في نهر (جانجا) ويظل في النهر يستحم حتى يشعر بأن إرادته قد زالت، وقد تحررت نفسه من كل خلق ردئ .وبهذه الطريقة والغاية يكون

(١) د/ رؤوف شلبي : التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ص ٧٢
(٢) المرجع السابق ص ٥٧
(١) انظر رؤوف شلبي ص ٧٨: ٧٩

لمدينة (بنارس) منزلة دينية فهي مقبرة كل من شاخ، وأما لأنه ينتظر الموت فيذهب ليستحم أو ليوضع هناك علي شاطئ النهر ليحرق بالنار . والأموات لديهم يلقون بالزينة ثم تربط فيهم حجارة ثم يدخلونهم النهر المقدس ذاك (نهر جانجا) كرمز لدخول الروح في اتحاد مع الإله [١] .

والحق: لقد كان الصينيون الذين عاشوا منذ آلاف السنين عبدة للطبيعة تمام كأغلب الشعوب القديمة ... وأهم عناصر تلك العبادة الخوف من خوارق الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة في جميع الأنحاء ومن هنا عبدوا السماء بما فيها من مظاهر الرعد والبرق والأمطار والسحب المحملة لها وما علي الأرض من أنهار وآمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحا يجب أن تعبد [٢] .

والبارثينون [٣] هم عدد من الرجال الفارعين الذين يرتدون أثوابا بيضاء ذات أحزمة منسوجة، يشقون طريقهم بين الجموع المختلفة في مدينة (بومباي) بالهند في طريقهم إلي الشاطئ المطل علي بحر العرب وعند حافة الماء يقف هؤلاء الرجال لينحنوا علي الماء ويغطسوا أيديهم فيه، ثم يرفعوها إلي جباههم ثم يتجهوا نحو الشمس الغاربة ...فهؤلاء النار لديهم والماء مقدسين ....لذا فهم لا يستطيعون أن يلقوا بجثث موتاهم في ماء البحر حتى لا يدنسوا الماء المقدس الذي لا يقرب إلا للشرب وري الأرض ولا يستخدم حتى في غسل الأشياء القذرة [٤] .

٢- الديانة الصابئية:-

حقا: يلعب الماء دورا هاما في الأديان وخصوصا كعنصر رمزي للتنظيف والطهارة وغسل الذنوب عند البشر لذا نجد طوائف كثيرة ترتبط حياتهم الاجتماعية والدينية بالمياه وتعيش علي ضفاف الأنهر كما هو الحال مع الصابئة المندائيين .

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٧

(٣) انظر : سليمان مظهر قصة العقائد ص ١٣٥: ١٣٦

(٤) وهؤلاء أصلهم فارسي من إيران ، ويؤيد هذابان الإيرانيين القدماء قد عبدو بالفعل العديد من آلهة الطبيعة والتي يندرج تحتها بطبيعة الحال المطر – فقد جعلوا لها إلها خاصا وكانوا يطلقون علي هذه الآلهة مسمي (مايفا) أي الأرواح الخيرة . أنظر سليمان مظهر قصة العقائد ص ٢٣٨

(١) المرجع السابق ص ٢٣٤ :٢٣٥

والصائبة: لفظة آرمية الأصل، تدل علي التطهير والتعميد لحرص الصابئة علي تطهير أنفسهم من دنس الشهوات، والارتقاء بها إلي عالم الروحانيات [١] .

ودراسة تاريخ الصابئة المندائيين هو جزء من دراسة تاريخ العراق . فتوجد الصابئة منذ قرون طويلة في جنوب ما بين النهرين، واللغة التي ينطق بها الصابئة هي اللغة الآرمية بلهجتها الشرقية . ويتكلم الصابئة اللغة المندائية وهي أحدي اللغات السامية المشهورة في الزمن القديم، وهي أقرب إلي السريانية من غيرها . ويعتقد المندائيون أن لغتهم هي التي تكلم بها سيدنا آدم علية السلام حيث يؤمنون بأن كتابهم المقدس (الكنزاربا) يتضمن الصحف الأولى التي نزلت علي آدم ويسمي (سيدار آدم) كما تعتبر الصابئة (يحيى) عليه السلام نبيا لها، ويقدسون الكواكب والنجوم ويعظمونها ويعتبر الاتجاه نحو القطب الشمالي وكذلك التعميد في المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة بالكتابيين من اليهود والنصارى [٢].

وقد أختلف المؤرخون في أصل الصابئة المندائيين ونشأة دينهم ومصادره الأولى [٣] والصابئة المندائيون يحرصون علي أن يكونوا في سكناهم قريبين من مصادر مياه جارية وحية علي ضفاف الأنهار، وخاصة دجلة والفرات في عراق اليوم، والمهاجرون منهم في استراليا (خاصة) يمارسون طقوس تعميدهم بكل حرية علي ضفاف نهر

(٢) د / عصام الدين محمد : ديانات ومذاهب أهل العالم ص ٣٩٢

(٣) انظر الشهر ستانى الملل والنحل ج٢ص ٢٠١ ومعجم البلدان لياقوت الحموي ط ١٩٠٦م

(٤) حيث تمخض البحث في منشأ المندائيين عن نظريتين الأولي : أنهم من سكان ما بين النهرين القدماء وأنهم ورثوا الكثير من الميثولوجيا البابلية ولكنهم تأثروا باليهودية بحكم تجاورهم مع= = اليهود التي كانت تسكن ما بين النهرين ، وقد تأثروا بالمسيحية من خلال الاحتكاك بالنساطرة المسيحيين ، أما النظرية الثانية فيري البعض أن منشأهم كان في الغرب في منطقة البحر الميت (فلسطين) أو شرق الأردن حيث كانوا يمارسون شعيرة التعميد هناك (أنظر عزيز سباهى ص ٥٥ وما بعدها)

(نيبين) في مدينة نبرت، ولديهم عدد من الكتب المقدسة مكتوب بلغة سامية قريبة من السريانية، ومن أهم ما يتعلق منها بمسالة التعميد: (سدرة ادنشماثا) .

وهو يدور حول التعميد والدفن والحداد، وكان في خزانة المتحف العراقي نسخة حديثة مكتوبة باللغة المندائية، " وديوان طقوس التطهير " وهو كتاب يبين طرق التعميد بأنواعه [١] ويستخدمون الماء في تطهير ما يسمي ب (الحلالى) وهو (الشماس) ولا يتزوج إلا بكرا فإذا تزوج ثيبا سقطت مرتبته ومنع من وظيفته إلا إذا تعمد هو وزوجته (٣٦٠)مرة في ماء النهر الجاري . وهذا الحلالى يتعمد بالارتماس في الماء الموجود عند (المندي)[٢]

كما يستخدمون الماء في الطهارة المفروضة علي الذكر والأنثى، وتكون في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي . ويكون هذا الاستخدام عقب الجنابه التى تستدعى الارتماء في الماءثلاثه دفعات مع استحضار نيه الاغتسال وعقب الارتماء فى الماء يجب الوضوء أيضا، وهو واجب لكل صلاة، حيث يتوضأ الشخص وهو متجه نحو نجم القطب فيؤديه علي هيئة تشبه وضوء المسلمين أما أهم ما يستخدم به الماء هو (التعميد)[٣] وله أنواع لديهم . حيث يعتبر التعميد من أبرز معالم هذه الديانة ولا يكون إلا في الماء الحي ولا تتم الطقوس إلا بالارتماء في الماء سواء أكان الوقت صيفا أو شتاء، وقد أجاز لهم رجال دينهم مؤخرا الاغتسال في الحمامات، وأجاز لهم كذلك ماء العيون النابعة لتحقيق الطهارة . ويجب أن يتم التعميد علي أيدي رجال الدين

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣١٨

(٢) يسمي المندائيون معبدهم ب (المندى) وهو عبارة عن كوخ من القصب منصوب علي شاطئ نهر جار أو نبع ماء جار حي ، وباب المندى متجه نحو الجنوب ومحرابه نحو الشمال لاعتقادهم أنه المكان الذي يحكم فيه علي أعمال الناس بالصلاح أو الفساد يوم القيامة ، ومعابد المندائية خالية من أي تمثال أو صنم لتعظيمهم الماء الحي الجاري (أنظر الصابئين الأمة المقتصدة في التوراة والإنجيل والقرآن) أ.د/أحمدحجازي السقا وعزيز سباهى ص ٦٥

(١) أخذت كلمة التعميد عن اليونانية وتعني الانغمار أو الارتماس في الماء ويقابلها في الآرمية مصبوتا وهي تؤدي ذات المعني وأصبحت تطلق علي كل طقس ديني يجري مع الانغماس في الماء (عزيز سباهى ص ١١٧)

ويكون العماد في حالات: الولادة [١]، والزواج [٢]، وعماد الجماعة[٣]، وعماد الأعياد [٤]، وتعميد المحتضر [٥].

كما يستخدمون الماء الجاري في التكفير عن الخطيئة، فإذا وقعت الفتاة أو المرآة في جريمة الزنا فأنها لا تقتل، بل تهجر وبإمكانها أن تكفر عن خطيئتها بالارتماء في الماء الجاري، كما لا تؤكل الذبائح لديهم إلا إذ ذبحت بيدي رجال الدين وبحضور الشهود، ويقوم الذابح بعد أن يتوضأ بغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات [٦] .

فالماء الحي (مياهي) شعار وصفة ملازمة من الناحية الفكرية والطقسية للديانة المندائية . فللماء في الديانة المندائية قدسية عظيمة وهو مصدر الحياة ذاتها: ففي

---

(٢) الولادة : يعمد المولود بعد ٤٥ يوم ليصبح طاهرا من دنس الولادة حيث يدخل هذا الوليد في الماء الجاري إلي ركبتيه مع الاتجاه جهة نجم القطب ويوضع في يده خاتم اخضر من الأس

(٣) عماد الزواج : يتم في يوم الأحد وبحضور ترميذة وكنزبرايتم بثلاث دفعات في الماء مع قراءة من كتاب الفلستاوبلباس ، ثم يشربان من قنينة ملئت بماء أخذ من النهر يسمي (ممبوهة) ...بعد ذلك لا يلمسان لمدة سبعة أيام حيث يكونان نجسين ، لذا يجب أن يعمدا من جديد وتعمد معهماكافة القدور والأواني التي أكلا فيها أو شربا فيها

(٤) عماد الجماعة : يكون في كل عيد (بنجه) من كل سنه كبيسة لمدة خمسة أيام ، ويشمل أبناء الطائفة كافة رجالا ونساء كبار ا وصغارا ، وذلك بالارتماء في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام في كل يوم من الأيام الخمسة ، والمقصود منه هو التكفير عن الخطايا والذنوب المرتكبة في بحر السنة الماضية

(٥) عماد الأعياد : ولديهم من الأعياد العيد الكبير وهو عيد ملك الأنوار ، والعيد الصغير وعيد البنجة ، وعيد يحيى ومنه كانت ولادة النبي يحيى عليه السلام

(٦) وهناك تعميد المحتضر ودفنه : وذلك عندما يحتضر الصابئ يجب أن يؤخذ وقبل زهوق روحه إلي الماء الجاري ليتم تعميده ، فمن مات من دون عماد نجس ويحرم لمسه ، وبعد ثلاث ساعات من موته يغسل ويكفن ويدفن حيث يموت . ومن مات غيله أو فجأة فأنه لا يغسل ولا يلمس ويقوم الكنزبرا بواجب العماد عنه .الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٢١: ٣٢٣ .

(١) **http/www.Islampedia.com/mie2/mawz/ s.htmi.**

الوضوء أو ما يسمونه ب (الرشامة) التي تجري عند النهر الجاري يقول المندائيين (أبرخ يردنة ادمية هيى مشبة ماري كشطة سنخون) . وتعني (تبارك الماء العظيم ماء الحياة سبحان الهي أحفظ عهده) . كذلك يقولون في الوضوء (ملين ابملالى ادزيره وازهي طي بصري دمنهور) وتعني (لينطقا بكلام النور وليكن ضميري نقيا مؤمنا بالصلاح[١] .

ولكن ليس كل ماء هو مقدس في المندائية، وإنما فقط الماء الجاري الحي الذي يطلق عليه (يردنا) [٢] . وهناك الماء الراكد أو الميت الذي ترفضه الديانة المندائية، والذي يرمز إلي الظلام والموت . أما الماء الجاري الحي (يردنا) فهو الماء الذي يحمل كل صفات الحياة و(يردنا) لها أهمية رمزية كبيرة في عملية الخلق وانبثاق الحياة والعوالم، فهي تعتبر من صفات الخالق المقدس والعظيمة والتي انبثق في آخر يوم من أيام الخلق العلوي الخمسة (البروناية) [٣] .

وخلاصة القول: أن الماء الحي (مياهيى – يردنا)هو جوهر طقسي (المصبتا– الصباغة) التعميد المندائي . و(يردنا) عموما يرمز إلي صفة الأب وعنصر الحياة (السائل الحيوي للحياة والتكوين) في الفكر والممارسة الطقسية المندائية . و(يردنا) هي نفسها التي سيولد بها الإنسان المصطبغ (المتعمد) مرة أخري تاركا خطاياه بعيده.

وأخيـر: يجب أن نذكر بأن كلمة (مصبتا) مشتقة من جزر الفعل الثلاثي المندائي (صبا) بسكون الصاد وفتح الباء – وتعني مندائيا التعميد أو الصباغة بالذات. من هذه الكلمة جاءت تسمية المندائيين بالصابئة [٤] .

ويلتقي الاسينيون والمندائيون في طقوس التعميد، حيث يتعين أن يرتدي الملابس البيضاء إذ يرتدي المندائي ملابس بيضاء تعرف ب (الرسته) [١] وطائفة

---

(٢) انظر : الليدى دراور الصابئة المندائيون ص ٢١٩ وما بعدها .

(٣) وتعني كلمة (يردنا) في اللغات الآرامية الماء النقي الجاري ، ويبدأ البارسيون (في الهند) أسماء الأنهار بسابقة هي (أرد) وهناك العديد من الأنهر في أوربا تذكرنا باليردنا الرون والراين ، ولا ننسى رودانوس التسمية القديمة علي ما يبدو أن الكلمة ترجع إلي فترات بعيدة في تاريخ البشرية القديم (انظر عزيز سباهى أصول الصابئة ص ٣٨

(٤) **http:/www.madaenunion.org/htstory/a k history006 htm**

(١) أنظر عباس محمود العقاد (إبراهيم أبو الأنبياء) ص ١٣٩

الاسينين توجد على الجانب الغربي من نهر الأردن، وقد اكتشف لها أحواض خاصة في منطقة خربة قمران (شمال غرب البحر الميت) لأداء هذه المراسيم علي الرغم من اندثار هذه الطائفة فلقد كانت الحمامات المرتبة طقسيا مألوفة لدي هذه الطائفة، ومثلما كانت عند جماعات دمشق وقمران . والبحوث جارية للكشف عن هذه الطائفة التي تعتبر التعميد أو الغطس بالمياه الجارية، الطريق الذي يوصلهم إلي الاتصال بالخالق . فمن تعاليم هذه الطائفة انغمار المرء كليا في الماء ثم يشرع في رش الماء علي نفسه[٢] ويقول جوزيفوس المؤرخ اليهودي [٣] الذي ادعي معرفته بالطائفة: أن الطهارة لدي الآسينين هي شكل من أشكال التعميد لأنها كانت تمارس قبل وجبة الطعام اليومية العمومية . أو إذا تدنس أخ بتماسه مع أفراد فئة أدني منه دينيا، أو في حالة قبول مرشح عضوا في النظام الكهنوتي.

وهناك علاقة وثيقة – أيضا – من حيث طقوس التعميد بين الصابئة والحسح، والحسح قد وجودا في شرق البحر الميت وهي: فرقة فلسطينية قريبة إلي اليهودية وقد اتخذت من التعميد ركنا أساسيا في طقوسها الدينية كنوع من التطهير من الخطايا[٤] . وهو موضوع أثاره ابن النديم حيث يقول: (إن هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح – جنوب العراق – وهو صابئة البطائح يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه، ورئيسهم يعرف بالحسح) [٥].

(٢) انظر عزيز سباهى أصول الصابئه المندائيون ص ٥٥ وما بعدها

(٣) **http:/www.mandaenunion.org/history/ar.history011.htm**

(٤) حروب اليهود المجلد الرابع ص ٢٢٢

(١) محمد عمر حمادة تاريخ الصابئة المندائيين .

(٢) الفهرست ص ٤٧٧

٣- الديانة اليهودية:-

الماء كما لاحظنا سابقا ينظر إلية بمنظار مقدس فهو في مرتبة عالية أيضا في الممارسات والفكر الديني اليهودي[١] حيث كان لموضوع الطهارة والنجاسة شأن كبير في الشريعة اليهودية والمجتمع اليهودي كما يقول زكي شنودة [٢] علي أساس أن طبيعة القداسة التي يتصف بها الله ترفض وتنبذ ما هو غير قدوس أو غير طاهر أي نجس . وهناك العديد من الآيات التي يستندون عليها في ممارسة التطهير منها:- ما قاله الله في سفر اللاويين (كونوا قديسين لأني أنا قدوس، ولا تنجسوا أنفسكم) [٣] ولذلك طلب الله ممن يقتربون منه أن يدخلوا بيته ولاسيما الكهنة واللاويين وأن يغتسلوا قبل اقترابهم أو دخولهم، فأصبح هذا الاغتسال من أهم الطقوس اليهودية، وأصبح الإهمال فيه يستوجب الموت إذ جاء في سفر الخروج (فقال الرب لموسي ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك اذهب إلي الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ويكونوا مستعدين وليتقدس أيضا الكهنة الذين يقتربون إلي الرب لئلا يبطش بهم الرب[٤] .

وجاء في سفر العدد (وكلم الرب موسى قائلا: خذ اللاويين . من بين بني إسرائيل وطهرهم وهكذا تفعل لتطهيرهم . انضح عليهم ماء الخطيئة ليمَرِ ُ ُ ُ ُ ُ ُ ُوا موسى على كل بشرتهم ويغسلوا ثيابهم فيتطهروا) [٥].

وجاء في سفر الخروج (وكلم الرب موسى قائلا: وتضع مرحضة من نحاس وقاعدتها من نحاس للاغتسال، وتجعلها بين خيمة الاجتماع والمذبح وتجعل فيها ماء، فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها . عند دخولهم إلي خيمة الاجتماع يغسلون

(١) ويظهر ذلك جليا في فكرها (روح الله يرف علي وجه المياه) التكوين١
(٢) المجتمع اليهودي ص ٢٠٠
(٣) اللاويين ١١ / ٤٤
(٤) الخروج ١٩/٩ :٢٢
(٥) العدد ٨/٥ : ٧

بماء لئلا يموتوا . أو عند اقترابهم إلي المذبح للخدمة ..... يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا . ويكون لهم فريضة أبدية له ولنسله في أجيالهم [١] .

وجاء في سفر التثنية (إذا خرجت من جيش علي أعدائك فاحترز من كل شيء رديء إن كان فيك رجل غير طاهر من عارض الليل يخرج إلي خارج المحلة، ولا يدخل إلي دخل المحلة ونحو إقبال المساء يغتسل بماء وعند غروب الشمس يدخل إلي داخل المحلة ....لان الرب إلهك سائر في وسط محلتك ...فلتكن محلتك مقدسة لئلا يرى فيك قذر شيء فيرجع عنك)[٢].

ولم تكن قذارة البدن وحدها هي التي تنجس الإنسان بهذا المعني في الشريعة اليهودية، وإنما كانت هناك أسباب أخري للنجاسة أهمها:-

أن يمس الإنسان جثة ميت . إذ جاءفى سفر العدد(كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب، فتقطع تلك النفس من إسرائيل ....هذه هي الشريعة إذ مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام ..... وكل من مس علي وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا)[٣] .

ولا يزال هذا النوع من النجاسة إلا بطقوس معينة إذ جاء في سفر العدد: (فيأخذون النجس من غبار حريق ذبيحة الخطية ويجعل عليه ماء حيا في إناء ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها في الماء وينضحه علي الخيمة وعلي جميع الأمتعة وعلي الأنفس الذين كانوا هناك وعلي الذي مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر)[٤] .

ومن أهم أسباب النجاسة – أيضا – لدي اليهود والتي تستوجب التطهير الإصابة بالبرص [٥] . وسيلان الدم الطبيعي والمرض [١] كما تعتبر الشريعة اليهودية

(١) الخروج ٣٠ / ١٧ :٢١
(٢) التثنية ٣٣ / ٩ : ١٢
(٣) العدد١٩ /١٣ :١٦ انظر أيضا اللاويين ٢١ / ١١
(٤) انظر العدد ١٩/ ١٧ :٢٢
(٥) انظر اللاويين ١/١٤ :٢٠

بعض الخطايا نجسة مما يستوجب استخدام الماء لتبرئة الذات من تلك الخطايا والذنوب ومن أمثلة تلك الخطايا (الزنا) ما ورد في سفر اللاويين (ولا تجعل مع أمرآة صاحبك مضجعك لزرع فتنجس بها)[٢] .

ومن الخطايا – أيضا – التي تستوجب تبرئة الذات منها جريمة (القتل) حيث جاء في اشعياء "آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجه عنكم حتى لا يسمع ...لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم "[٣].

. كما اعتبرت الشريعة اليهودية عبادة الأوثان من الخطايا النجسة التي تستوجب تبرئة النفس منها حيث ورد في حزقيال (ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها اخطئوا وأطهرهم فيكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها)[٤].

وطبقا للشريعة اليهودية – أيضا – من يهتدي باليهودية علي حد زعمهم يتوجب عليه أن يمر بطقس ديني يفترض الانغماس في الماء لذا تجمع عدد كبير من اليهود حول يوحنا بن زكريا [٥] بالقرب من بيت حابار علي نهر الأردن حيث أغطسهم يوحنا في ماء النهر ليطهرهم قبل أن يعظهم [٦].

---

(٦) انظر اللاويين ١٥ /١ :٥٦

(١) ١٨/ ٢٠

(٢) ٥٩ /٢ : ٣

(٣) ٢٣/٣٧

(٤) ولد يوحنا المعمدان أما في ٧ أو ٦ ق.م في صبرون أوفي القرية التي تدعي الآن (عين كارم) إلي الشمال الغربي من بيت لحم والتي تبعد بحوالي ٢٠ميلا عن قمران وقطع رأسه بأمر من هيرود في ما بين ٢٨ ،٣٠ ولا يعرف عن نشأته سوي أنه سكن البراري وبعض الباحثين يعتقدون أنه عاش بين الآسينين او طائفه البحر الميت منذ ان كان صبيا (عزيز سباهى: اصول الصابئه ص١١٦)

(٥) انظر سليمان مظهر قصة العقائد ص ٣٦١ (حينئذ خرج إلية أورشليم وكل اليهود وجميع الكورة المحيطة بالأردن واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم) متى ٣/٥ : ٦

وهناك علي شاطئ الأردن وبالقرب من أريحا جاء يسوع ليعمد من يوحنا المعمدان، واقترب يسوع وسمع يوحنا يقول (أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوي مني الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه) (١).

وعند ذلك طلب يسوع من يوحنا أن يعمده ولكن عين النبي الفاحصة أدركت علي الفور أن يسوع ليس رجل عاديا وتردد يوحنا وهو يقول (أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي)(٢).

ولكن يسوع أصر فامتثل يوحنا (٣) وقد تميز تعميد يحيى بكونه قد مارسه مع اليهود وغير اليهود أيضا، وأنه كان يجري لمرة واحدة إذ لم يذكر أنه كان يعمد الشخص الواحد أكثر من مرة . وكان يحيى لا يلزم من يرغب في التعميد بالمرور بفترة إعداد خاصة كما كانت تفعل طائفة البحر الميت، وكان التعميد يجري في نهر الأردن أمام مرأى الجموع التي كانت تحتشد طلبا لتعميده وما ينطوي عليه من غفران . ويختلف تعميد يحيى في كونه لا يطلب ممن يرغب في التعميد أن يختتن أولا ويقدم قربانا للهيكل ثم يتعمد كما هو الشأن لدي اليهود عند تعميد من يريد اعتناق اليهودية، وتميز تعميد يحيى كذلك في كونه طقسا دينيا يقدم عليه الفرد كوعا بغية التخلص من خطاياه علي يد شخص له منزلة كبيرة في النفوس (٤).

إن الطقس الاغتسال بالمياه الجارية (التعميد) والذي يأخذ في رأيي اشكالا متعددة بين أقوام وأديان وشعوب العالم، لكن يبقي جوهره واحدا وهدفه الرئيسي هو التطهير واكتساب منحة الحياة والاتصال بالقوي الحياتية، لما للماء مثلما أوضحت من أهمية بالغة في عقيدة الأديان، والكثير من هذه الأديان تعتقد بوجود القوي الخفية التي تحمي هذه المياه وتعطيها البركة الإلهية والقوة علي الإنعاش والتواصل مع الحياة .

---

(١) متى ٣ / ١١

(٢) متى ٣ / ١٤

(٣) انظر متى ٣ /١٥ : ١٧

(٤) عزيز سباهى ص١١٨ : ١١٩

ويذكر لنا التاريخ أن هناك فرقا يهودية قديمة عديدة كانت تمارس مثل هذا النوع من الطقوس، فاليهود الذين سكنوا بلاد ما بين النهرين (الشتات) لجأوا إلية حين بشروا بدينهم هناك، إذ كانوا يلزمون من ينضم إلي اليهودية بالتعميد (كان المتهودون يعمدون أو يغطسون بالماء في نهر قريب عادة علامة تطهير) ولقد اكتشف في السنوات القليلة الماضية منطقة تقع شرق نهر الأردن، وقد أكد بعض الباحثين بأن البلدة المكتشفة ترجع للنبي يحيى (يوحنا) ولتلاميذه من بعده وربما ترجع لطائفة الاسينين، وخاصة أنها قريبة من مركزهم الرئيسي في منطقة (قمران) وعلي العموم إن البلدة المكتشفة تحتوى علي العديد من الأحواض المختلفة الحجوم، وهي بالتأكيد لأغراض الاغتسال والتطهير الديني [١].

٤ـ الديانة المسيحية:ـ

يحتل الماء مكانة عظيمة – أيضا– في الديانة المسيحية عبر قناة التعميد لديهم حيث يحتفل المسيحيون الذين يسيرون بحسب التقويم الغربي بعيد عماد السيد المسيح وهذا العيد يعتبر نقطة الانطلاق في رسالته العلنية بعد قضائه ثلاثين سنه في حياة الناصرة الخفية كما يدعون، وتتلخص هذه الخطوة باعتماده في نهر الأردن علي يد يوحنا المعمدان . ولكن مانعه الأخير لأنه رأي بأنه هو المحتاج إلي الاعتماد علي يده فكيف يأتي ويطلب المعمودية منه ؟ ولكن السيد المسيح يصر بقوله (يليق بنا أن نكمل كل بر)[٢] .

وفيما هو يعمده تفتحت أبواب السماء، وحل عليه روح الله علي هيئة حمامة، وجاءت شهادة السماء علي الفور كما يزعمون إذ سمع صوت يقول (أنت ابني الحبيب الذي به سررت)[٣] فكان عماده بداية عهده وفاتحة رسالته، ونقطة انطلاقه ٠

إذن فقد اعتمد السيد المسحي من أجل أن يتم كل بر، ومن أجل أن يكون في كل شيء قدوة صالحة للذين سيؤمنون، ولكي تكون المعمودية التي أمر بها المدخل

(١) http:/www.mandaenunion.org/history/ar.history011.htm

(٢) متى ٣ / ١٥ .

(٣) مرقس ١ / ١٢ . ومتى ٣ / ١٧ .

الوحيد إلي ملكوته فالمعمودية هي – علي حد قولهم – هى المدخل إلي الحياة المسيحية، والعلامة الحسية والخارجية الرسمية التي لا تمحي ولا تتكرر .

كما أنها أصبحت سر من أسرار الكنيسة السبع [١]ويتوجب عل كل مسيحي أن يتعمد كختم لإيمانه . وتعتبر المعمودية أمرا هاما لأنها تأتي ضمن المأمورية العظمي التي أعطاها المسيح لتلاميذه حين قال: (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا كل ما أوصيتكم به)[٢] وأساس المعمودية في الديانة المسيحية أن بعض أنواع الاغتسال بقصد التطهير – أي التعميد –كانت معروفة في العهد القديم ومذكورة في الكتاب المقدس [٣] وكأن المعمودية في الديانة المسيحية قد حلت مكان الختان في العهد القديم، وكلاهما علامة علي العهد كما يزعمون ويصعب تحديد الوقت الذي فيه بدأت المعمودية المسيحية، وإنما بدأت زمن المسيح . حيث يقول يوحنا في انجيله (وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلي أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يعمد وكان يوحنا أيضا يعمد في عين نون)[٤] .

ولكن السؤال هنا هل أمر المعمودية ضروري بالنسبة للمسيحي ؟ والإجابة لديهم بنعم حيث ورد في أمر المعمودية قول يسوع لتلاميذه (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والإبن والروح القدس)[٥] .

---

(١) هناك من فرق بين دلالة كل من الكلمتين (عقيدة – وسر) ومن وحد بينهما ، حيث تعني كلمة عقيدة لديهم حقيقة من حقائق الإيمان ، يتضمنها الوحي ، تعرض في الكنسية وبواسطتها . كما أوردوا كلمة السر أيضا في قواميسهم بأنها حقيقة روحيه عميقه لا يقدر إنسان أن يدركها بعقله الطبيعي ولا بفكره الجسدي (قاموس الكتاب المقدس) ص ٤٦٤ (انظر أيضا مكرم نجيب : المعمودية بين المفهوم والممارسة)

(٢) متى ٢٨ / ١٩ : ٢٠

(٣) حيث ورد في قصة نعمان السرياني رئيس جيش ملك آرام أنه كان مصابا بالبرص وجاء إلي النبي اليشع ليشفيه فأرسل رسولا يقول له (اذهب واغتسل سبع مرات في نهر الأردن)(٢ ملوك٥) انظر أيضا المزمور الخامس ، ومتى ٣ /١١

(٤) يوحنا ٣ / ٢٢ : ٢٣ .

(٥) متى ٢٨ / ١٩

فالمعمودية – إذن – هي طقس الغسل بالماء للتطهير الديني، وكانت معروفة عند اليهود ولما جاء يسوع تبنى هذا الطقس وجعله فريضة في الكنيسة المسيحية إذا أنه جعل التعميد علامة علي التطهير من الخطيئة والنجاسة،وعلامة الانتساب إلي المسيحية، ويصرح الله للمتعمد بواسطة هذه العلامة بغفران الخطايا ومنح الخلاص، أما المعتمد فيتعهد بالطاعة لكلمة الله والتكريس لخدمته(١).

وقد اختلفت وجهات نظر المسيحيين حول المعمودية وكان الجدال حول قضيتين(نوع المعمودية، ومعمودية الأطفال أو الكبار) حيث ذهب البعض منهم الأرثوذكس إلي أن المعمودية لا تصح إلا بتغطيس الإنسان كاملا تحت الماء وتستند في ذلك بأن كلمة المعمودية تعني الغمر أو الغطس .

أما مفهوم السكب فهو مفهوم ثانوي للكلمة اليونانية (باتبنرو) كما استندوا بأن المسيح قد غطس من قبل يوحنا المعمدان في نهر الأردن بدليل قول الكتاب (فلما اعتمد يسوع وصعد للوقت من الماء)(٢) والصعود هنا يستلزم الهبوط، كما أنهم يروا بأنها تشير إلي أن المتعمد قد دفن مع المسيح وقام معه بناء علي الآية القائلة أم تجهلون أن كان من اعتمد ليسوع اعتمدنا لموتة فدفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الأب هكذا نسلك نحن – أيضا– في جدة الحياة)(٣) .

إلا أن البعض الآخر وهم أغلبية المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت تكتفي برش الماء علي الوجه، لأن المقصود من وضع الماء هو الإشارة إلي غسل الروح القدس، لذلك فإن كمية الماء غير مهمة في الموضوع، كما أنها عدلت عن التغطيس لأسباب صوابية كتسهيل العماد ومنع الخطر (٤).

---

(١) أنظر أعمال ٢ / ٢١ ، ورومية ٦ / ٣ .

(٢) متى ٣ /١٦ ، مرقس ١ /١٠ .

(٣) رومية ٦ /٣ : ٤

(٤) أنظر في ذلك : سلاحك أيها المسيحي (كاثوليكي) ص ١٩٣ الأب نعمة الله العنداري وشرح التعليم المسيحي لطلبة المدارس ج٣ (الصلاة والأسرار ص ٦٦ لمرقس خزام ، ودستور الكنسية الإنجيلية بمصر (بروتستانتي) ص ٥١ واللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر للأب بسترس ج٣ (الأسرار والحياة الأبدية) ص ١١٤ .

أمـا القضـية الثانيـة وهـي عمـاد الأطفـال أم الكبـار: فقـد أغلبيـة المسـيحيين الكاثوليك والبروتستانت إلي أن معمودية الأطفال واجبة ما داموا أطفالا لمؤمنين وذلك علامة علي الميثاق بين الله وبينهم . وقد أوردوا أدلة عديدة تؤكد هذا المنهج منها:-

ما ورد في كتاب اللاهوت المسيحي [١] (إننا لا نري لدي آباء الكنسية أي تردد في تعميد الأطفال بناء علي أن التقليد الكنسي التي درجت عليه الكنيسة من أيام الرسل لا يمنع تعميدهم)[٢].

كما أن التقليد الرسولي الذي يعود إلي حوالي (٢١٥م) يقـول في منح العماد (ويعمـد الأطفـال أولا وإذا اسـتطاع هـؤلاء أن يجيبـوا عـن أنفسـهم، فليجيبـوا، وإلا فليجيبوا،وإلا فليجب عنهم ذووهم أو أحد من أفراد أسرتهم) كما لهم أدلة عديدة تؤكد معتقدهم هذا [٣].

أما البعض الآخر وهم قلة (البروتستانت) فقد انشقت علي نفسها في أمر معمودية الأطفال حيث ذهب البعض منها إلي تأييد القول السابق من وجوب التعميد، والبعض الآخر إلي القول باستنكار فكرة تعميد الأطفال، حيث ذهبوا إلي أن التلمذة – أي الإيمان – تسبق المعمودية وذلك في قول المسيح (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم) إلي غير ذلك من أدلة وتحقيقا للآية (من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدان)[٤].

بركات المعمودية وفوائدها العظيمة:- ولنأتي إلي ما يخدم بحق موضوع بحثنا هذا وهو ما حجم بركات وفوائد تلك المعمودية المزعومة ؟ فنلاحظه أغلبية المسيحيين

(١) الأب سليم بسترس (الأسرار والحياة الأبدية) ج٣ ص ٩٦ : ٩٧ .
(٢) أنظر : اكورنش ١ /١٦ اشعياء ١٦ / ١٥ ،١٦/ ٣٢ .
(٣) أنظر الأنوار في الأسرار جراسيموس مسرة ص ٤٦ ، والكنيسة المسيحية في عصر الرسل . ص ٣١٥ ،٣١٦ للإنباء يوانس واللآليء النفيسة في شرح معتقدات وطقوس الكنسية ج ٢ .
(٤) مرقس ١٦/١٦ .

الممثلين في طائفة الأرثوذكس والكاثوليك [١] يذهبون إلي أبعد ما يتصوره العقل في حجم تلك البركات والفوائد حيث أخرجوها من نطاق استيعاب العقل في حجم تلك البركات والفوائد حيث أخرجوها من نطاق استيعاب العقل البشري لها وجعلوها سرا مقدسا من أسرار الكنيسة،إلا أنهم حاولوا أن يقربونا – علي حد زعمهم – من الوقوف علي هذه البركات بعض الشيء حيث ذهبوا إلي أنها:-

١- تعمل علي غفران الخطايا (توبوا وليعتمد كل واحد منكم علي اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا)[٢] (لأنكم جميعا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح)[٣] .

٢- إنها تنجي من الموت والشرير (أم تجهلون أن كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته)[٤].

٣- إنها تمنح الخلاص الأبدي (من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن)[٥] (الذى مثاله يخلصنا نحن الان أي المعمودية)[٦]

وقد حصل المسيح علي كل هذه البركات لأجلنا بواسطة الآمه وموته ولكن المعمودية – علي حد زعمهم – وسليه تؤدي عن طريق عمل الروح القدس إلي جعل هذه البركات ملكا لهم كما ورد (لأنكم جميعا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح)[٧] (لأنكم اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا)[٨] كما حاولوا أن يقدموا لنا تفسير مبررا لكل هذه البركات والتقديسات

---

(١) أنظر الكنيسة المسيحية في عصر الرسل ص ٣١٢ وكتاب نؤمن تسيودول . رى . مرمية ضرغام .ص ١٣٨ والأنوار في الأسرار ص ٣٣ .

(٢) أعمال الرسل ٢ / ٣٨ .

(٣) غلأطية ٣ / ٢٦ : ٢٧ .

(٤) رومية ٦ / ٣ .

(٥) مرقس ١٦ / ١٦.

(٦) بطرس ٣ / ٢١

(٧) غلأطية ٣/٢٦ :٢٧

(١) اكورنثوس ٦/١١

التي تمنحها المعمودية بالماء لكي يستطيع العقل أن يتقبلها ولو بعض الشيء بأن الماء في حد ذاته المستخدم في المعمودية إنما هو ماء عادي وأن كلمة الله وحلولها[١] فيه تضع هذه البركات العظيمة في المعمودية، بواسطة الإيمان الواثق بكلمة الوعد هذه نقبل البركات التي تمنحها المعمودية: المغفرة، والحياة، والخلاص . ونجعلها ملكا لنا حيث ورد (أحب المسيح أيضا الكنيسة واسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهرا إياها بغسل الماء بالكلمة)[٢] .

۞۞۞

مغزى المعمودية بالماء لدي طائفة المسيحيين:-

ذهب أغلبيتهم بأن المعمودية بالماء تشير إلي أن آدم العتيق [٣] فينا يجب أن يغرق ويموت مع جميع الخطايا والشهوات الشريرة، بالتوبة والندامة اليومية، وأن يولد فينا يوميا إنسان جديد يحيا أمام الله بالبر والطهارة إلي الأبد، وذلك استنادا علي قول بولس في رسالته إلي أهل رومية الإصحاح السادس [٤](فدفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الأب وهكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة) .

فمعتقد الطائفة الكاثوليكية والأرثوذكسية في مكانه المعمودية مبني أساسا علي مكانة الأسرار لديهم، حيث تمثل في جوهرها أعمالا مقدسة مانحة فعلا النعمة الإلهية للمؤمنين فليست رسوما للمواعد الإلهية فقط، بل هي أيضا آلات تفعل ضرورة في

(٢) أنه لا يمكن التعويل هنا علي هذا المنطق الذي يتحدثون به ، لأنه ليس هناك معني لحلول كلمة الله أو غيرها في هذا الماء ولا في أي شيء أيا كان قدرة أو منزلته ، لان الله سبحانه وتعالى لا يحل ولا يتحد في شيء هو أو أي شيء من متعلقاته من فعل أو صفة أوكلمه او غيرها مما يدعون زيفا وجهلا بحال الذات العلية .

(٣) افسس ٥ / ٢٥ :٢٦ .

(٤) آدم العتيق هو الطبيعة الخاطئة التي ورثناها بسقوط آدم وتولد معنا (أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور)(افسس ٤ / ٢٢) .

(٥) ٣ : ٤ .

المتقدمين إليها ولم يتخلف عن هذا المعتقد غير طائفة البروتستانت حيث ذهبت إلي القول بأن التجديد عمل الروح القدس داخلا لا عمل الماء المرشوش خارجا، وأن النعمة والخلاص ليسوا مرتبطين بهذا السر ارتباطا غير منفصل حتى لا يتجدد ولا يخلص أحد بدونه ولا يقال لديهم أن كل معتمد لا محالة يتجدد، لأن ليس من قدرة علي تطهير القلب إلا قدرة الله فالمعمودية إذن لديهم ما هي إلا علاقة خارجية مستقلة واشارة إلي النعمة الداخلية [١].

ومبني معتقدهم هذا علي أن حقيقة الأسرار وفاعليتها لا تتوقفان علي أهلية متمميها وطويتهم بل علي نية وإيمان متناوليها، وعلي هذا لا يكون السر سرا، ولا تكون له قوة وفاعلية إلا حين يتناوله الإنسان وهو مؤمن به [٢] فالترتيب الكتابي لديهم هو التوبة فالإيمان فالمعمودية [٣] .

٥- الدين الإسلامي:-

وفي الدين الإسلامي نجد الاهتمام بالماء شيئا واضحا أيضا وذلك ترجمة من منطقية لقولة تعالي:" وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " [٤] حيث استخدمه المسلمون كمصدر للتطهير البدني من الجنابة ومصدر للنظافة العضوية أثناء الوضوء لأداء الصلوات الخمسة المفروضة [٥].

وقد اتضحت قدسية الماء لدي المسلمين بجلاء – وليس الإسلام – [٦] من جراء تفضيل أغلبهم لبئر زمزم واختصاص ماؤه بقدسية خاصة قد تكون مماثلة لدي بعض العوام للمعمودية لدي المسيحيين وغيرهم ٠

لذا سنقف وقفة مطولة عندها كما يلي:-

---

(١)أنظر علم اللاهوت النظامي ص ١٠٧٧ ، وعقيدتنا اللاهوتية أديسون ليتش ترجمة فهيم عزيز .

(٢) أنظر كتاب جون كلفن . تأليف د / حنا الحضري ص ٢٤٤ .

(٣) أنظر اشعياء ١٥ /٩ ، يوحنا ١ : ٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

(٥) أنظر سورة المائدة الآية ٦

(٦) أما ما ورد في شأنه من أحاديث نبوية فمردودة فيها هو آت من هذا البحث .

١- **تعريفها:**- زمزم بفتح الذاى وسكون الميم وتكرارها قيل سميت زمزم لكثرة مائها . وقيل: أن هاجر قلت عندما انفجر ماء زمزم زم زم، بصيغة الأمر أي توقف عن الفوران. كما قيل: أيضا أنها سميت بذلك لأن الفرس في الزمن الأول كانت تأتي زمزم فتزمزم عنده .

٢- **أسماؤها:**- وقد سميت زمزم بأسماء عدة كان من أهمها:- حرمية(لوجودها بالحرم)، ومروية (لأنها تسرى في جميع أعضاء البدن فيتغذي منها) وسالمة (لأنها لا تقبل الغش) وميمونة (من الميمنة وهي البركة) ومباركة (لأن ماءها لا ينفذ أبداَ) وكافية (لأنها تكفي عن الطعام وغيره) وعافية(لأن من شرب منها لا يهزل) وطعام طعم(لقول رسول الله صلي الله عليه وسلم في حديث إسلام أبى ذر أنها طعام طعم رواه مسلم وأبو داود) ومؤنسة (لأنس أهل الحرم بها)[١].

ويقول الفاكهي أيضا أعطاني أحمد بن محمد بن إبراهيم كتابا ذكر أنة عن أشياخة من أهل مكة فكتبته من كتابه، فقالوا هذه تسمية أسماء زمزم وهي زمزم، وهي هزمة جبريل، وهي بكرة وسيدة، ونافعة، ومضمونة، وعونه، وبشرى،وصافية، وبرة، وعصمة وسالمة، وحرمية، ومروية، وطعام طعم وشفاء سقم [٢].

٣- **قصة منشأ زمزم:**-

تجري رويـة الإخباريين إلي أن (إبراهيم) حمل زوجته(هاجر) وأبنها(إسماعيل)نحو الجنوب حتى وصل إلي هذا الوادي الذي كان مضرب خيام القوافل ثم تركهما فيه وعاد من حيث أتي، بعد أن ترك لهما ما يتبلغان به من التمر والماء....، فلما نفذ الماء وكادا أن يهلكا عطشا ذهبت تبحث عنه،وأثناء هذا البحث انفجرت عين زمزم فأقامت عليها وابنها .. علي أن زمزم التي تفجرت ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام علي مقربة منها . وتجري بعض الروايات بأن قبيلة جرهم اليمنية هو أولى القبائل التي أقامت بعد أن تفجرت زمزم[٣] . وكانت مكة شحيحة المياه، وهذا ما جعل مهمة

(١) أنظر ابن الأثير في البداية والنهاية .
(٢) أنظر أخبار مكة .
(٣) أنظر : ابن هشام الجزء الأول ص ١٢٣ : ١٢٤ .

السقاية، وهي توفير الماء للحجاج فضيلة عظيمة في نظر أهلها [١]. وهذا يجعلنا ندرك مدى الحفاوة البالغة التي أسبغت علي رواية حفر بئر زمزم بها [٢] .

وظلت كذلك حين فتح النبي صلي الله عليه وسلم مكة، حيث الغي كل المناصب بها ولم يبق إلا علي هاتين الوظيفتين السقاية والسدانة تقديرا لأهميتهما [٣].

٣- **مظهر بئر زمزم من الداخل والخارج:**- المصدر الرئيسي لبئر زمزم فتحته تحت الحجر الأسود مباشرة وطولها (٤٥سم) وارتفاعها (٣٠ سم) ويتدفق منها القدر الأكبر من المياه، والمصدر الثاني فتحة كبيرة باتجاه المكبرية(٦).وبطول(٧٠سم) ومقسومة من الداخل إلي فتحتين وارتفاعها(٣٠سم)وهناك فتحات صغيرة بين احجار البناء في البئر تخرج منها المياه ويبلغ عمق البئر (٣٠مترا) ويبلغ عمق مستوى الماء عن فتحة البئر حوالي أربعة أمتار،وعمق العيون التي تغذي البئر عن فتحة البئر (١٣مترا) ومن العيون إلي قعر البئر(١٧مترا)[٤] .

٤- **فوائد بئر زمزم وبركته لدي المسلمين:**- يعتقد أغلبية المسلمين خاصة المنقطعين للعبادة في الحرم المكي والعاكفين بأن في ماء بئر زمزم أسرار لا يجدون لها تفسيرا، فيكتفون باعتبارها من الغيبيات التي توجب الاستنكار والدهشة فماء زمزم الذي يشربونه في انقطاعهم للعبادة تتغير خواصه فيصبح كأنه لبن أو عسل مصفي ويؤكد ذلك الكاتب السعودي عمر المضواحي[٥] المهتم بالكتابة عن الأماكن المقدسة إن هذا البئر هو أقدس آبار المياه عند المسلمين، وليس هناك شراب علي وجه الأرض يفوق مكانة بئر زمزم عندهم، ويحملون لهذا الماء ذي الطعم الفريد قدسية خاصة، ويؤمنون بأنه مكنون بأسرار لا قبل للعقل البشري في استيعابها،أولا يعرفون تفسيرا لتغير خواصه ومنافعه وفق حالة شاربه ورغبته .

---

(١) أنظر التوبة الآية ١٩

(٢) انظر ابن هشام جزء ١ص١٢١ :١٢٣،

(٣) أنظر الطبري تاريخ الأمم والملوك ج٢ / ٣٢٧ .

(٤) مبني مخصص لرفع الآذان والإقامة مطل علي الطواف .

(٥) **http:/www.sohhant.com/vb/shotthraad.php?t=1110**

(٦) **http:/www.sohhant.com/vb/shotthraad.php?t=1110**

وعند هؤلاء العارفين:- أيضا- أن الشرب من زمزم للخائف آمان وللمريض شفاء، وللجائع طعام،ولا يخالط شاربه لإيمانه القاطع بإسراره، والمرويات حول هذه الغرائب كثيرة وعديدة، ناءت بحملها بطون الكتب، ولكن قبل عرض مختصرات من هذه المرويات سأعرض بعض الأحاديث التي كانت السبب المباشر في غرس كل هذا التقديس لماء زمزم ومنها:-

١- قال عبدان: أخبرنا عبد الله: أخبرنا يونس، عن الزهري: قال أنس بن مالك كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث: أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال (خرج سقفي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغهما في صدري ثم أطبقه ثم اخذ بيدي فعرج إلي السماء الدنيا [١].

٢- حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم قال قال عبد الله بن المؤمل أنه سمع الزبير يقول سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول (ماء زمزم لما شرب له)[٢]

كما سيقت مرويات عديدة كما ألمحت سابقا في عجائب ماء زمزم وفضلها ومنها:- شفاء سيدة من القرحة القرمزية التي أصابت عينها بدون جراحة أو تدخل من احد لمجرد أن توجهت لمكة وطافت بالكعبة ثم اتجهت إلي ماء زمزم لتملأ كوبا منه وتغسل به عينها...حيث توارت حينئذ أعراض القرحة ولم يعد لها أثر يذكر، وعندما علم الطبيب المعالج لها بذلك ما كان منه إلا أن يردد بأن هذه المريضة التي فشل الطب في

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٠٩٤ كتاب الأنبياء ،باب ذكر إدريس علية السلام .

(٢) سنن ابن ماجد حديث رقم ٣٠٥٣ كتاب المناسك ، باب الشرب من زمزم(قال السيوطي في حاشية الكتاب هذاالحديث مشهور علي الألسنة كثيرا . واختلف الحفاظ فيه فمنهم من صححه ومنهم من حسنه ومنهم من ضعفه . وفي الزوائد هذا إسناد ضعيف ، لضعف عبد الله بن المؤمل . وقد أخرجه الحاكم في المستدرك عن طريق ابن عباس وقال هذاحديث صحيح الإسناد).

علاجها عالجها الطبيب الأعظم في عيادته الإلهية التي أخبر عنها رسوله الكريم صلي الله عليه وسلم (ماء زمزم لما شرب له) إن شربته تستشفي شفاك الله....)[١].

وقد شربه جمع من العلماء – كما يعتقدون– لمطالب فنالوها فقد ورد عن أبي حنيفة رحمة الله أنه شربه للعلم والفصاحة فكان أفقه زمانه، وكما ورد عن الشافعي أنه شربه للعلم فكان فيه الغاية....[٢] .

كما ذهبوا إلي أن ماء زمزم له مزية من حيث التركيب أيضا حيث قام بعض الباحثين من الباكستانيين من فترة طويلة فأثبتوا هذا، كما ذهب المهندس سامي عنقاوى مدير ورئيس مركز أبحاث الحج إلي القول ..... أنه عندما كنا نحفر في زمزم عند التوسعة الجديدة للحرم كنا كلما أخذنا من ماء زمزم زادنا عطاء وكلما أخذت من الماء زاد ...[٣].

---

(١) رواة الدار قطني والحكم وزاد ،(وهنا يجب آلا نعول علي مثل هذه القصص كثيرا، فإن كانت حدثت بالفعل فما حصولها إلا من قبل الصدفة أو القدر وليست قاعدة إلزامية تبني عليها مقدمات وتستخرج منها نتائج ، ومع التسليم بحدوثها من باب مجراه الحديث ، فما حدوثها هذا بمستبعد عن إرادة الله سبحانه وقضاءه المبرم منذ الأزل في تحديد زمان ومكان شفاء تلك السيدة أو غيرها . وهذا بالفعل ما شهد به طبيبها حينما قال (عالجها المعالج الأعظم) أما أن نعول الأمر برمته علي خاصية اختص بها بئر زمزم فهذا ابعد ما يكون عن الصواب والحق فالماء بمنطق العقل والعلم لا يحمل في ذاته أي خاصية مغارية عن غيره اللهم إلا قداسة تلك العين بناء علي قداسة الأشخاص الذين ارتبط ذكرهم بذكرها .

(٢) وهنا يحق لنا التعليق بأنه لا يعقل بأن هؤلاء العلماء الإجلاء الذين نالوا ما نالواه من العلم والتفقهة كان من قبيل الشرب من ماء زمزم فقط والحق إنه لا تفقيهه ولا تعلم بدون تحصيل وكسب وسيرة هؤلاء الإجلاء خير شاهد علي ذلك وكما يقال ليس بالأماني فقط تنال المطالب .

(٣) أنظر كتاب : أنت تسال والشيخ الزنداني يجيب حول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني . وأن كنت أري فرقا كبير بين خصائص تركيب ماء زمزم وبين كونه لا ينضب أبدا ولا يجف كغيره من الآبار فالمقصود من خصائص التركيب أن يكون حاوي لعناصر أخري نفتقد وجودها في عيره من الآبار ، أما كونه لا ينضب ولا يجف فما ذاك إلا = =تلبية لدعاء أبي الأنبياء والمرسلين سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يجعل هذا البلد أمنا وسلاما علي أهلها ويرزقها من الطيبات ولا يكون تحقيق ذلك إلا بتوافر الماء فيها ودوامه وكان ذلك بوجود

ومما يقال في فضله وقدسيته – أيضا – بأن المكيين حرصوا علي جعل ماء زمزم آخر ما يغسل به موتاهم قبل دفنهم رجاء بركته وحسن عائدتة . ومن الطريف أن الأمهات في مكة يحرصون علي شرب أبنائهم الطلاب ماء زمزم قبيل توجههم إلي الاختبارات الدراسية رجاء أن لا ينسوا ما حفظوه من دروس، ويألف كل من قدم إلي المسجد الحرام رؤية معظم الحجاج والمعتمرين القادمين من الخارج علي غسل قطعة طويلة من قماش قطن ابيض اللون وغمرها بماء زمزم ومن ثم تجفيفها في أروقة الحرم ليحفظوها بعد ذلك لاستخدمها تبركا كأكفان لهم ولموتاهم كما أنه يندر أن يغفل حاج أو معتمر في رحلة العودة إلي بلده دون أن يتزود بكميات منه، كما يحرص شيوخ الرقي الشرعية علي التزود بكميات كبيرة من ماء زمزم ليتولوا قراءة القرآن عليه وتقديمه لقاصديهم من المرضى ومن مسهم الجن لشرب مقدار يحددونه لإتمام العلاج بالرقية .

❁❁❁

بئر زمزم لا ينضب ولا يجف لقولة تعالي " **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**" (سورة إبراهيم الآية ٣٧) .

البواعث العامة وراء ظاهرة تقديس الماء

أولا:- النزوع الإنساني نحو المحسوس المتجسد:-

مما لاشك فيه أن الإنسان قد أحس قبل أن يفكر، فلا جرم أن لنقضي عليه ردح من الدهر في بداءة نشأته وهو يفكر حسيا، فلا يعرف معني الموجود إلا مرادفا لمعني المحسوس أو الملموس، فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لا شك فيه، وكل ما خفي علي النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء حتى عندما مال إلي التعقل شيئا ما في مرحلة متقدمة من وجوده قد أسلمه عقله إلي المحسوس أيضا لأن آلة العقل ذاته حسية(المخ) والمحسوس يميل بطبعه إلي المحسوس المطابق لجنسه أكثر منه إلي المعقول فما أسهل التعلق بالمحسوس، والاعتقاد الجازم به، لأنه لا يفتقر إلي برهان أو دليل لإثبات وجوده، فضلا عن ذلك فإنه مما يعد من العوامل التي تدعوا إلي الركون علي الشيء الماثل أمامنا، ظن البعض بأنه مرتبط بقاعدة جلب المنفعة ودرء المضرة حقيقة أو حكما .

كما هو الحال في شأن تلك الظاهر الماثلة في هذا البحث وهي: (تقديس الماء) حيث نظر الإنسان إليه نظرة إجلال وإعجاب قد أفضت به في كثير من الأحيان إلي تقديسه، وذلك بناء علي ما شاهده بعين البصر من منافع جمة تستجلب من ورائه كارتواء بدنه وماشيته منه، وإحياء كل الكائنات من حوله عن طريق الاستفادة من مياه الأمطار حينا، ومياه الآبار والعيون حينا أخري، والبحار والأنهار وما تحويه من خير ومنافع جمة.

وأما حكما: فتحقيقا لقوله تعالي:" وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " فقد أدركوا من جراء مثل هذا النص الكريم ما يحويه عنصر الماء من حياة حقيقة لكل الكائنات الحية في هذا العالم الذي يعيش فيه أما استكمال القاعدة التي هدته إلي تقديسه للماء وهي درأ المضرة عنه لما رآه من صور حيه للفيضانات والأعاصير والسيول الجارفة التي تحصد كل ما يعترى طريقها ولا تستبقى، فهداه تفكيره إلي تقديسها وتعظيمها في بعض الأحيان فضلا عن عبادتها في البعض الأخر .

إذن: يمكن القول إن طريقة تفكير هؤلاء لها تعلق واحد هو الغيب المطلق الغيب المرتبط بقوى الطبيعة وليس في إمكانها التفريق بين عالم الطبيعة وعالم ما وراء

الطبيعة، كما يمكن القول بأن الخيال المزود بحرارة آلام التجارب الواقعية أثر في بعض الناس الذين يعشقون إسقاط تصوراتهم الخيالية في أشكال مقدسة .

ثانيا:–الفتنة بالأكثرية:–

قد يفتتن المرء بفتنة الأكثرية،إذ تتخدع نفسه بتلك الكثرة الذي تتبني مذهبا ومعتقدا معا ويصور له العقل حينئذ – الذي من جبلته الخطأ والصواب– بأن الحق لابد أن يكون معها ونابعا منها، وتطمئنه نفسه– التي لا تأمن الانخداع والإضلال هي الأخرى – بأنه ليس من الممكن أن تنخدع وتضل كل هذه الجموع، أو أن تجتمع علي باطل، فيسارع حينئذ في الانضمام إليها والدخول تحت لوائها، ويسلم لها طواعية كل ما لديه من أدوات الإدراك والتفكر، وتعمل هي أيضا من ناحية أخرى علي سلب ما هيته وضمور شخصيته بعد أن استولت علي كل ما يمكن به المقاومة من أدارك وتفكر فما تلبث أن تتحكم في جميع قواه، وتسخره لمطالبها ولأهوائها فنراه لا يرى إلا ما تراه ولا يرضى بديلا عنها ولا يلتفت إلي ما يأتي إليه ممن سواها، حتى ولو كان الحق والصواب مع القلة التي تقف في الجبهة المقابلة تدعوه لما فيه صلاحه وفلاحه بل نراه يستولى عليه العجب من هذه القلة التي تدعوه إلي الحق، ويقف بصرامة وجمود في وجهها متهما إياها بالمروق والارتداد عما ارتضاه أكثر الناس دينا ومعتقدا؟

وبهذه النظرة التي تجانب الصواب بكل معايره، ومن جراء هذه الفتنه نراهم يجعلون الناس أدلة علي الحق والحقيقة، لا الحق أدلة علي الناس ويقومون القيم بالأشخاص والصواب والحق أن تقوم الأشخاص بالقيم، فنجدهم يؤمنون بالشئ لأن فلانا آمن به وصاحبه جمع غفيرٌ ًُُ ًَّ ًَّ َ َ ًَّ ُ ّ ٌ، دون أن يكون لهم سند علي ما آمنوا به، غير إتباع الكثرة له ويؤكد هذا محمد رشيد رضا إذ يقول: (وهو نوع أو ضرب من ضروب التقليد لأهل الضلال يقع فيه المرء تعظيما لجمهور قومه، ومن نشأ علي احترامهم من آبائه وأجداده، واستبعادا لكونهم كانوا متفقين علي أتباع الضلال واستبعاد أن يكون هذا الدعي قد عرف الهدي من دونهم،أو أوحي إليه لم يوح إليهم وهذا ما كان عليه عامة العرب عند ظهور الإسلام [١]).

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ٤١٤ .

وفي الحقيقة: إن رأى الأكثرية ليس أولي بالصواب دائما من رأي الأقلية، وذلك لأن الأكثرية لا تستلزم الحقيقة والإصابة في الحكم، ولا هي بالتي تطمئن الجموع إلي رأيها ولهذا شدد الله النكير علي الافتتان بها والوقوع في حبائلها، بأن أوجب علي كل مسلم أن يحتكم في أمور دينه لا إلي ما يؤمن به الناس بل إلي الحق في ذاته، الذي نزل به كتاب الله، ودعا به وإليه رسله الكرام حيث أبان في كتابه العزيز بأن الأكثرية لم تكن دائما علي الحق دليلا، ولا سببا داعيا إلي الإيمان به عن طريقها، وذلك بأن ملأ علي المسلم دنياه بالعديد من الآيات التي توضح هذا الأمر قال تعالي:" وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ " [١] وقال تعالي:" **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** "[٢]وقال تعالي:" **إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ** " [٣].

كما يزيدنا الله بيانا بأن أوضح لنا أن أكثر الناس في كل عصر كانوا جهلا، جاحدين للنعمة فساقا ينقضون عهد الله قال تعالي:" **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** " [٤] كما يقرر لنا سبحانه إن هذه هي سمة البشرية يضل الشيطان الأكثرية منها فيقول: " **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** " [٥]

لذا ينهي الله ويحذر من طاعة الأكثرية دون بصر أو تدبر، ومن الفتنة بها حتى لا نضل عن سبيل الله قال تعالي: " **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** " [٦] .

ويقول هنا صاحب تفسير المنار (أن أكثر الناس ضالون متبعون لوحي الشياطين، وما يتبعون في عقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذي ترجحه لهم أهواؤهم وما هم

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٣ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٥٠ .
(٤) سورة هود الآية ١٧ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٠٢ .
(٧) سورة الصافات الآية ٧١ .
(١) سورة الأنعام الآية ١١٦.

فيها إلا يخرصون خرصا في ترجيح بعضهما علي بعض فلا شئ منها مبني علي علم صحيح ولا ثابت بدلائل تنتهي إلي اليقين)[1].

وكي لا نبقي علي مستوي التنظير لنتاول مثالا حيا وليكن (ماء زمزم) مضرب المثل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الفتنة بقول الأكثرية مع عدم ركون هذه الأكثرية إلي علم صحيح ثابت بدلائل يقينية، حيث أوردت فيما سبق إثناء الحديث عن تقديس ماء زمزم لدي المسلمين طفرة من الأحاديث تركن إلي هذا الأمر .

وقد حان الوقت إذن أن نضع هذه الأحاديث علي مأدبة الحوار والبحث من جهة قطعتيها في الدلالة والثبوت ، ولنستمع إلي الداعية الدكتور (يوسف القرضاوي) في تنفيده لهذا الأمر حيث قال: قال صيارفة الحديث: إن في إسناده عبد الله بن المؤمل[2]،وقد تفرد به، وهو ضعيف وأعله ابن القطان به، وقد رواه البيهقي عن طريق آخر عن جابر وفيها سويد بن سعيد وهو ضعيف جدا، قال فيه يحيى بن معين (لو كان لي فرس ورمح لغزوات سويدا) وذلك لما يرى من خطره علي الحديث وروايته للمناكير ، أما الحديث الأخر (ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته تستشفي به شفاك الله وإن شربته مستعينا أعانك الله، وأن شربته ليقطع ظمأك قطعه الله) . فالصحيح أن هذا الحديث من قول ابن عباس نفسه وليس مرفوعا عن النبي صلي الله عليه وسلم وقد خطأ الحافظ في (التلخيص) الراوي الذي رفع الحديث إلي الرسول، وحكم علي روايته بالشذوذ، ومخالفة الحفاظ الثقات . وإذا كان هذا قول ابن عباس رضي الله عنه وعنهما . فهو مجرد رأي شخصي رآه، لا يلزمنا إتباعه ولا الإيمان به معه ولا حجه في أحد دون رسول الله صلي الله عليه وسلم .

ويقول أيضا: إن البخاري في صحيحه عقد في كتاب الحج بابا فيما جاء في ماء زمزم، فلم يورد في فضلها أو بركتها إلا حديث شق صدره عليه السلام وغسله من ماء زمزم، وحديث آخر فيه أنه شرب منه، وليس في الحديثين ما يدل دلالة صريحة

(٢) ج ٨ ص ١٥ .

(٣) حديث : (ماء زمزم لما شرب له) .

علي فضل أو بركة وهو ما نص عليه الحافظ بن حجر في (الفتح) حين شرحه للحديث.

هذا فضلا علي أن الاستنتاجات من تحاليل ماء زمزم أكدت أن اسه الهيدروجيني(٧.٥) وبذلك يكون قلويا إلي حد ما، وأن جميع (الكايتونات والايونات) ما عدى الصوديوم تقع ضمن مقياس منظمة الصحة العالمية . ولكن يبقي لنا كما يقول الشيخ القرضاوي إن لماء زمزم ارتباطه في نفوسنا بذكريات تمتد إلي أبوينا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام(١).

ولضخامة الافتتان بقول الأكثرية نجد القرآن الكريم لم يقف عند حدود التحذير والتنبيه فقط، بل أعطانا المنهج العملي الذي نستطيع من خلاله أن نتخلص من حبائل هذه الفتنه الضالة وأن نحرر عقولنا من هذا الأسر الاجتماعي القاهر، وذلك بالتفكير الفردي الهادي المتحرر من كل قيود إلا قيود المنطق السليم إذ يقول: "**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** " (٢)وبالتأمل في هذه الوصية الحكيمة، نرى فيها وصفاً للداء والدواء معا . فهي قبل كل شيء تقرير ضمني للحقيقة الواقعة، وهي أن العقل الجمعي يطبع عقول أعضائه بطابعه المشترك ولذلك تدعوا الآية كل فرد من الجماعة أن يخلو بنفسه أو برفيق واحد(مثني وفرادى) ليكون حينا من الوقت بعيدا عن تأثير البيئة وتيارها الجارف . كما أن الآية تشير إلي أن ما تقرره هذه العقلية المشتركة ليس هو دائما أقرب القرارات إلي الصواب لذا تخول لكل فرد حقه في الحرية الفكرية والنقد النزيه لهذه القرارات العامة وفي هذا المعني تقول الحكمة النبوية: (لا تكونوا إمعة: تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلما، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا)(٣).

ثالثا:- النفاق الديني:-

---

(١) **htto:www.alwatam.com.sa/daily 200s_06_01/readeri.htm.11/9/2006**

(٢) سورة سبأ الآية ٤٦ .

(١) رواة الترمذي في باب الإحسان والعفو من أبواب البر والصلة

قد يعد البواعث المشتركة لما له من شأن عظيم في إخراج أي دين من إطاره الصحيح والدخول به في دائرة الانحراف، التي تضيق وتتسع تبعا لمدى قدرة وإبداع الممتهنين لهذه الوظيفة . تلك الوظيفة التي يشغلها من سموا برجال الدين عبر الفكر الديني بأكمله ويؤكد علي هذه الحقيقة الدكتور البهي إذ يقول: (ولا يظهر هذا الجانب الانحرافى النفسي إلا ممن كانت حرفته الدين، والاسترزاق به إلا من كان الرأي في الدين وظيفة له وتعلقت بها معيشته إلا من لا يستطيع أن يمارس عملا آخر في الحياة، سوى أداء رسوم الدين للآخرين، وإفتائهم في مشاكلهم التي يستفتونه فيها ...) [١].

ولنقترب أكثر من هذا الباعث عن طريق أمثلة حيه من داخل الأديان نفسها سواء كانت وضيعة أم سماوية، حيث نتجه أولا إلي الحضارات القديمة فإذا نقبنا فيها بموضوعيه لوجدنا مدى الدور الخطير الذي لعبه الكهنة في ذلك الوقت من ترسيخ لكثير من المعتقدات والطقوس الخاطئة إمعانا منهم في تقوية مركزهم الديني والشعبي في ذلك الوقت .

فالأسطورة السحرية للماء تأخذنا إلي أعماق سحيقة في التاريخ الإنساني حيث عاصرته وهو يبني حضارته وفكره الديني منذ بدايات طفولته الفكرية إلي الآن فإذا نظرنا إلي الحضارة المصرية سنجد دور الكهنة الخطير في إخراج الماء من دائرته وأهميته الطبيعية إلي دخوله دائرة الطبيعة الإلهية، حيث اعتقدوا اعتقادا جازما بأن الماء يرتبط به إله يسمي بالاله (حابي) وهو صاحب اليد الطولي في حركتهما ومسيرتهما وتأثيره في حياة الأرض والناس[٢].

كما يؤكد عمق هذه الباعث بأن طبقة الكهنة في الحضارة المصرية كانوا يصرون بأن يقوموا بأنفسهم بكل طقوس التطهير سواء للمعبد أو المرشحين للكهانة ومن هنا عرف المصريين القدماء الأحواض المقدسة المملؤة بالمياه الخاصة للتطهير . ويؤكد ذلك د/محمود أبو الفيض إذ يقول: (لقد طوق الكهنة الناس بمحيط عظيم من الأساطير والرموز وفرضوا عليهم فروضا لم تكن، وأنواعاً كثيرة من العبادة والتقاليد . كل هذا بغية

(٢) الفكر الإسلامي في المجتمع المعاصر ص ٣٢٨ .
(٣) سليمان مظهر : قصة الديانات ص ٣٠ : ٣١ .

إبقاء الشعب علي حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا بهذه الطرائق إلي تسلم زمامه والاستعلاء عليه من كل ناحية)[1] كما أننا لو انتقلنا إلي الديانة الصابئة سنجد هذا الباعث نفسه – النفاق الديني – يدور معنا في نفس الاتجاه حيث نجد الصورة أكثر بيانا مما سبق فهناك – كما أوضحت سابقا – وجود العديد من حالات العماد في الدين الصابئي منها عماد الولادة والزواج وعماد الجماعة وعماد الأعياد وتعميد المحتضر، والتعميد لتكفير الخطايا وللدخول في طبقة رجال الدين الصابئي ... وكل هذه الأنواع التي تتعهد الإنسان منذ مولده إلي وقت احتضاره لا تتم ولا يكون لها معني إلا إذا أقيمت علي يد رجال الدين الصابئي . وهذا بالطبع ما أغرسته تلك الطبقة في نفوس السواد الأعظم من الصابئين ضمانا للحفاظ علي مكانتها وقدسيتها بين الشعب، بل ضمانا لنيل المال والجاه من كل اتجاه .

ولا يبعد عن هذا من يقومون بالتطهير في الديانة اليهودية والمعمودية في المسيحية فالطفل لا يعد مسيحيا حتى يعمد، والتعميد لا يتم إلا علي يد الكاهن . ومن ثم تبدأ حياة المسيحي بتلك الوساطة الكهنوتية التي تدخله في الدين ابتداء: ثم يظل حياته كلها مرتبطا بالكاهن [2]هذا الرباط الذي يمثل في حسه الكوة المفتوحة علي عالم الغيب وكيف لا وقداسة البابا الجالس علي عرش البابوية هناك هو المتحدث الوحيد باسم الرب الإله في الأرض .

وعلي الرغم من هذه المهام البالغة الأهمية التي أحاطوا بها أنفسهم باسم الدين كانت قلوب أكثرهم خالية من التقوى، فهو كما شهد به كتابهم ومؤرخوهم عباد دنيا، عباد مال ونساء وشهوات لذا كان الدين بالنسبة لهم حرفة يحترفونها وسبيلا يلجونه ليوصلهم إلي المناصب العالية والسلطان الطاغي وفي صلب العقيدة التي اخترعوها أبواب عديدة للطغيان قد فتحوها لتحقيق مآربهم وعلي رأسها تلك الأسرار التي لا يعلمها إلا الراسخون .... لا في العلم ولكن في الكهنوت ومن هذه الأسرار المعمودية

(١) وحدة الدين والفلسفة ص ٤٩ مجلد أول في تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلي الآن .

(٢) فهو الذي يزوجه ، وهو الذي يصلي به صلاة الأحد في الكنسية ، وهو الذي يتقبل اعترافه بخطاياه ويتقبل توبته . وهو الذي يصلي عليه في النهاية حين يموت فهو من مولده إلي مماته يدورفي فلك الكاهن .

المسيحية[١]ولنختم قولنا في الدين المسيحي بقول إحدى القديسات: (إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة ...لم تر إلا شرا ورزيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة)[٢].

وإذا انتقلنا إلي حال المسلمين سنجد هذا الأمر أيضا حيث استغل القائمين علي أمر مكة وموسم الحج فيها وجود بئر زمزم علي مقربة من الحرم فراح تجار مكة وأغنياؤها وهم من قريش يدعوا إن بئر زمزم ملكهم الخاص واخذوا في بيعه للحجيج ... وعندما حدث هذا بدأ العرب يشكون فيما إذا كان هذا الماء مقدسا حقا ... فلو كان ذلك صحيحا فكيف يباع بيع السلع؟ وخطر ببال الكثيرين إلا قدسية هناك... ولكنهم التزموا الصمت...ثم اخذوا بالتدريج يفقدون الإيمان في قوة ماء زمزم وقدسية الكعبة [٣].

وان كان هذا الأمر قد حدث قبل الإسلام في عهد الجاهلية فلا يستبعد حدوثه وطروءه علي العقول والأفكار بعد الإسلام، حيث غالي القائمين علي أمر بئر زمزم في شأنه وتقديسه وألفت في شأنه المؤلفات وكثرت كثرة مفرطة مما أوقع كثير من الدهماء في هذه الفتنه ووقع في قلوبهم الحرص الشديد للتوجه إلي تلك الأماكن المقدسة لا لغرض أداء مناسك الحج المباركة بقدر النيل من بركات وأعاجيب ذلك البئر المقدس .

والحق أنه في جميع كتب التاريخ التي وقعت تحت يدي لم يثبت أن لبئر زمزم أي أعاجيب أو طبيعة علاجية – كما يدعون – منذ أن تفجرت من تحت قدمي سيدنا إسماعيل إلي مجيء سيدنا محمد صلوات الله عليهما ولا يعقل أن تغير المياه من

---

(١) انظر حبيب جرجس أسرار الكنيسة ص ١٨٧ جراسيموس مسرة ص ٣١٥ ،٣٢١ (وقد كانت هذه الأسرار منافية للمنطق والعقل ولا شك أن واضعيها كانوا يعلمون ذلك أو يحسونه علي أقل تقدير لذا أصروا علي عدم منا قشتها لكي لا يفتضح أمرهم واعتبروا ذلك من كمال الإيمان وأن كان هناك من قد يوفقنا أمام أمورفى الدين الإسلامي قد فرضها الله ليس لها تعليل عقلي علي حد قوله فلنا أن نرد هجمته هذه بأن من رحمة الله علي عبادة المسلمين أنه قد جعل تلك الأمور من أمور التعبد ليعلم سبحانه من يطيعه بالغيب وليس في أمر العقيدة التي قد جعلها الله سهلة بلا الغاز ولا طلاسم ليستوعبها كل قلب ويطمئن إليها كل عقل) .

(٢) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٦ .

(٣) سليمان مظهر : قصة العقائد ص ٤٤٧ .

طبيعتها المعتادة ببعثة خاتم الأنبياء، وإن اعترض معترض بأنه يمكن تغير طبيعتها بمقتضي كونها معجزة حسية للرسول صلي الله عليه وسلم فهذا ابعد ما يكون عن الصواب لعلمنا اليقيني بأنها إن اعتبرت بأي حال كونها معجزة حسية فلا تكون بطبيعة الحال خاصة برسولنا الكريم بل أولي بها من تفجرت من تحت قدميه ومن آجلة، ومن جهة أخري فإن معجزات النبي الحسية أوضح ما تكون فيما تواتر وروده إلينا، كما أن القول بغير ذلك ينفي الأخذ بالأسباب ويلغي مدلول الحديث الصحيح (يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو قال دواء إلا داء واحداً قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم)[1] وان كان للبئر أي طبيعة علاجية أو أعاجيب فإن العرب قبل رسول الله صلي الله عليه وسلم هو أكثر من كانوا يعرفون مكانتها وهم أهل الفراسة إلا أن التاريخ يصدمنا بخلاف ذلك بأنه قد أتي على زمزم وقتا قد أهملت فيه إلي أن اختفت معالمها ثم أحيي مكانها مرة أخري عبد المطلب، فلم ينسب إليها العرب قبل الإسلام إلا كونها مكان للسقاية ولخدمة الحجيج ولم يبقي إلا أن نقول لجميع القائلين بأن لماء زمزم طبيعة علاجية ما بال تلك الطبيعة تغير من ذاتيتها عندما يتناولها غير المؤمن كالمسيحي أو اليهودي أو المجوسي أو دون ذلك، والعقل والمنطق الذى أرسي قواعده الإسلام يؤكد بأن طبيعة الشيء لا تتغير بتغير متناوليها .

(١) سنن الترمذي كتاب الطب باب ما جاء في الدواء والحث عليه رقم الحديث ١٩٦١ وكذلك مسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصاحبة رقم الحديث ٣٣٩٧ .

رابعا التقاليد وفرضيتها:-

التقاليد أشد رسوخا من العادات وأكثر بقاء وأشد تماسكا أمام التغيير والتطوير فالنزعة التقليدية تعني: الاقتصار العاطفي علي التراث [١]وخاصة المعتقدات التقليدية والولاء لها والتقليد كما ورد في قاموس مصطلحات الأنتولوجيا [٢] (نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يقبله عموما دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف ...ويستند إلي معايير إيديولوجية [٣] سالفة وتحولت إلي عادات شكلية بحته)٠

فالتقليد إذن ما هو إلا عادة فقدت مضمونها وأصبحت شكلاً من أشكال الرواسب الثقافية في المجتمع لها سلطان لا يقهر علي نفوس الأفراد [٤] .

ومن المعلوم بداهة أن ليس كل ما هو مورث صحيحا ويجب الخضوع والإذعان له كلية، فقد يكون فيه ما هو صحيح وما يجب قبوله بدون مراوغة أو أدني شك، وقد يشتمل علي ما هو خلاف هذا . وهذا ليس بالغريب لأن هذه التقاليد ما هي إلا جملة آراء لأناس خضعوا لثقافات معينة وشكلت عقلياتهم ظروف اجتماعية نشأوا في ظلها، ولكن السواد الأعظم من الناس لم يستوعبوا هذه المقدمة وما ترتب عليها من نتيجة، لذا انحدروا دينيا انحدارا عجزوا معه عن معرفة بواطن الصواب والخطأ .وسلموا أنفسهم طواعية لتلك الموروثات بدون أدني محاولة للجدال أو التعقل، وإن أقبلوا علي المجادلة فلا تكون إلا مجادلة بالباطل لرجحان جانب تلك الموروثات والتقاليد . ولا نعلم

---

(١) تراث **(tradition) يطلق هذه المصطلح علي انتقال بعض المعتقدات وأنماط السلوك والأنشطة من جيل إلي جيل آخر ، وقد يستخدم المصطلح بمعني التقاليد أي أنماط السلوك المقننة التي تنتجها الجماعة وتعمل علي تدعيم تماسكها . كما تحظي بالقبول من جانب الأعضاء (د/محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ص ٤٨٩) .**

(٢) هولنكرانس ص ١٢٥ ترجمة د/ محمد الجوهري و د/ حسن الشامي .

(٣) أيديولوجيه : نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعي إلي تفسير ظواهر اجتماعية ، أو هي نظام الأفكار المتداخلـــة(كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير) التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية وتبررها في نفس الوقت (د/ محمد عاطف ص ٢٣٤) .

(٤) أنظر : د / مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ص ٢٩ .

من أين لهم بهذا اليقين المطبق في صحة هذه التقاليد ليتمسكوا بها هذا التمسك المغال فيه. اللهم إلا إذا كان بطول العهد في إتباعها وسهولة الإتيان بها لأنها أصبحت من قبيل العادة المتكررة ليس إلا ٠ أما أن يعلل هذا اليقين لموافقتها لمنطق العقل وقياسه فهم أبعد ما يكونون عن هذا، لأنهم لو نظروا إليها بمنطق العقل لانكشفت لهم الحجب[١]. وهذه التقاليد والموروثات سرعان ما تدخل الإنسان في طلاسم الجمود الذي يفضي إلي إحالة الأفكار لقواعد ميتة بغير روح، ويحيل الوجدان إلي مشاعر خاوية من الأصالة والصدق، ويحيل الأعمال إلي أداء آلي خاليا من الحياة والإبداع . وعلي الرغم من مشوار الأنبياء والمرسلين الطويل والشاق في محاربة هذه التقاليد ومحاولة إبادتها لم يستطيعوا النيل منها كل النيل،كما أنه لم يكن لتقدم الشعوب في مجالات الفكر والثقافة أثر يذكر في محوها أو تغييرها، فما زال سلطانها غالبا في عقول كثير من الناس علي اختلاف مستوياتهم الثقافية والحضارية، لا فرق في ذلك بين أمي تسيطر عليه الأساطير والخرافات وبين مفكر يدافع عن المنهج العقلي ويستخدم المنطق في إنتاجه الفكري، حيث نجد ذلك المثقف في سلوكه الديني يرتد إلي تلك التقاليد التي انحدرت إليه من الآباء والأجداد منذ آلاف السنين [٢].

ولم يقف أمر تلك التقاليد إلي هذا الحد، بل استغلها المستفيدون في بقائها أسوأ استغلال وهو وجوب التقليد لإمام أو زعيم أو قس أو راهب أو ما هو من قبيل هذا ومن ضمن الشعارات التي استهووا بها العامة من الناس (ومن قلد عالما لقي الله سالما، ومن نظر واستدل ذل وضل) والحق إننا إذا استخدمنا الفكر في أحوال هؤلاء القوم الموجبون للتقليد فلن نجد إلا فن رياء ونفاق، وإذا ابتلينا أذهانهم ستفيض علينا ما استوعبته من كتب وأفكار الطواغيت ولسوء عاقبة هذا الأمر نجد العديد من الآيات القرآنية قد نددت به وحاربته حيث نعت علي التقليد الساذج، والإذعان للغير بدون تفكر وذلك كما في قوله: " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** " [٣] ولنستمع إلي قوله تعالي: " **بَلْ قَالُوا إِنَّا**

(١) أنظر د/ رشاد علي عبد العزيز موسى : علم النفس الدعوة بين النظيرة والتطبيق ص ٦٧٨ .
(٢) أنظر د / محمد شامة : الحسد في القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة ص ١٢٢ .
(١) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ " [1] وقد ذهب الأمام الرازي بأنه لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في أبطال القول بالتقليد[2]ولكن زادنا القرآن إطلاعا علي سوء التقليد وعاقبة متبعيه في قوله:" **وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "[3] وبهذه الآيات البيانات فقد هدم القرآن الكريم البناءالذى تقوم الأوهامَ عليه، والخبايا التي تعشش فيها فقتل مواليد الأوهام في مهدها وآمات بذورها في خبئها .

خامسا:- الأساطير والخرافات:-

إن القوة الخيالية عند بعض العاطفيين الذين يعجبون بألوان بهلوانية خرافية جعلتهم يتخيلون مجموعة من العجائب والغرائب فيما يتعلق بأوسع نعم الله علي الأرض ألا وهو الماء فما أبعدهم بعدا حقيقا عن الصواب .

والخرافة منشأها حين يتوهم الإنسان وجود علاقة عليه ضرورية بين ظاهرتين بينما تكون هذه العلاقة عرضية طارئة، ووظيفة الدين مع العلم هنا محاربة هذه الخرافات في كل صورها لأنها تنأي بالإنسان عن الواقع الحق . وتحول عبادته واهتمامه إلي أفراد أو أماكن أو أي شيء آخر تاركا المعبود الواحد الحق والخرافات والأساطير هي قصص ابتكرها البدائيون لتفسير ما يغم عليهم من ظواهر الطبيعة وأحدث الكون، وليس عجبنا أن تكون تلك القصص بدائية كالأذهان التي تفتقت عنها وقد ذاعت تلك الأساطير وشاعت علي ترادف الأزمنة وتخالف الأمكنة، والأساطير ضروب شتي فمنها:

١- أساطير تكتشف عن أصل الإنسان وتبين كيف وفد الموت علي العالم كالأساطير التي حاكتها بعض الشعوب حول الخلق والوجود .

---

(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٣) أنظر الفخر الرازي مجلد ١٤ ج ٢٧ ص ٢٠٧ : ٢٠٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

٢- وأساطير تتعلق بحوادث طبيعية وتفسر بعض الظواهر الطبيعية كأسطورة اكتساح الطوفان للكرة الأرضية كلها ....إلي غير ذلك من أساطير [١] .

ومما لا ريب فيه أن هذه الأساطير قد تبدلت معالمها بكثرة تداولها . وأن الشعوب والقبائل حشدت فيها من التغني بمحامدها والتنويه بمآثرها ما يجعلها محببة إلي نفوس أبنائها وقد كان أعضاء الأسر الكبيرة في الزمان الخالي ينصتون إلي هذه الأساطير في رهبة وخشوع، فلما درس ذلك النظام ونشأت طائفة الأطباء السحرة وأصبحوا هو الذين يتصرفون أمور قبائلهم استأثر هؤلاء برواية الأساطير، وكانوا يضنون بروايتها فلا يفعلون ذلك إلا في مناسبات خاصة وقد رفع هذاالصمت الذي أحاط بها من شأنها وأسبغ عليها ثواب من القدسية فأصبحت لا يترقي إليها الشك ولا يباح فيها الفحص ولا يخاض فيها بالحجاج واللجاج .

إذن: لا مفر لأي دعوة دينية وضيعة من أن تصيغ نفسها علي أساس من الخرافات والأساطير القديمة حتى لو أنكرت صلتها بتلك العقائد والأساطير ويبدوا أن هذه الحقيقة كانت سارية علي جميع المعتقدات الوضيعة والأديان التي نال منها التحريف والتبديل فصاحب الديانة الأحداث نشأة تأثر ثقافيا ببيئته وما تحتويه من أفكار وأساطير منها ما يوافق ويتناغم مع استعداداته العقلية والروحية والنفسية، ومنها ما لا يستسيغه ويمجه وما يراه متعارضا مع العقل أو الذوق أو الحس وخلاصة القول:

إن الديانة الأحدث – قبل الإسلام بالرغم مما تزعمه من مزاعم تأخذ التراث الديني الأسبق وتصيغة من جديد مع ما يلزم من إضافات جديدة تتناسب مع المستجدات والتراكمات الفكرية المتجددة وما يلزم من حذف ما استهجنته الطبيعة الدينية من عناصر بالية بدائية – أنطلق هذا مثلا علي العبرانيين حيث تأثروا بالتراث الديني للمنطقة فكانت ديانتهم عبارة عن دمج لما استحسنوه من عقائد وأساطير الأمم التي هاجروا إليها مثل مصر والأمم التي احتلوا أرضيها السيف مثل (الكنعانيين وغيرهم) والأمم التي عاشوا فيها أيام سبيهم مثل (بابل وأشور والفرس) كما انطبق هذه علي الديانة المسيحية التي أسست معظم عقائدها علي اليهودية وعلي كتابها المقدس فضمته

(١) أنظر : موسوعة الأديان السماوية والوضيعة ص ٢٧ (الديانة اليهودية) .

إلي أسفارها المقدسة، وبطبيعة الحال نقلت منها وعدلت من تعاليمها وأضافت لها ما يتفق مع التطور الفكري والعقائدي والفلسفي لعصرها .

سادسا:- التأثر بفكرة الحلول والاتحاد:-

والحلول لغة: النزل (حل بالمكان حولا ومحلا وحلا: وذلك نزول القوم بمحلة وهو نقيض الارتحال [١] وقد عرف الإمام الجرجاني الحلول بأنه (عبارة عن كون احد الجسمين ظرفا للأخر كحلول الماء في الكوز)[٢].

ويقول صاحب كتاب المفردات في غريب القرآن:- حللت نزلت أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل حل حلولا واحله وغيره قال عز وجل:" **أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ** " [٣]:" **وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَـوَارِ** "[٤] ويقال:حل الدَيْن وجب أداؤه، والحلة القوم النازلون [٥] .

والحلول دعوي من أخطر الدعاوي التي ظهرت في الإسلام ومعناه (كما في الطوالع) قيام موجود بموجود علي سبيل التبعية[٦] ويذكر الأستاذ محمود أبو الفيض:أن الحلول هو (تلبيس أو تدخل شيء في شيء أكبر منه ومغاير له علي أن يكون الحال والمحلول فيه محدودين بالتالي ماديين)[٧] أما الاتحاد فهو أبلغ وأعم من الحلول فلا اتحاد بغير حلول وقد عرف الإتحاد بأنه (امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيروا شيئا واحدا)[٨] ومن الملاحظ ركون أكثر أصحاب الملل القائلين بتقديس الماء كالصابئة واليهودية والمعمودية المسيحية والمقلدين من المسلمين إلي هذه الظاهرة الحلول والاتحاد لتبرير فحوى تقديسهم لهذا الماء، حيث يدعون حلول الله أو اتحاده في هذا الماء مما شأنه يجعله مباركا ومقدسا ويحوي العديد من الأسرار والأفعال العجيبة .

---

(١) أنظر : ابن منظور : لسان العرب باب اللام فصل الحاء ص ١٦٣ .
(٢) أنظر التعريف ص ٩٨ .
(٣) سورة الرعد الآية ٣١ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٨ .
(٥) الإمام الاصفهاني تحقيق محمد كيلاني ص ١٢٨ .
(٦) أ / محمود البشبيشي الفرق الإسلامية ص ٨٤ .
(٧) الوجود ص ٢٥٩ .
(٨) أنظر التعريفات للجرجاني ص ٦

والحق الذي ليس فيه مراء أن الحلول عموما . الذي معناه قيام موجود بوجود علي سبيل التبعية محال علي الله لأنه لا يمكن حلول القديم في الحادث لاختلاف ماهيتهما، ولأن الحلول يجعل الحال تبعا لما حل فيه فلا يتيقن الحال إلا بتوسط المحل فيكون الحال معلولا له متأثرا به، وهذا ينافي وصف الله تعالي بكونه واجبا لذاته، ولأن الحلول إن كان حلول عرض في جوهر فليس الله تعالي جوهرا، لأن الحلول ومثله الإتحاد بين الممكنين محال إذا لا يمكن أن يصير رجلان رجلا واحد لتباينهما في الذات،فالتباين بين واجب الوجودوبين الممكن اعظم وأولى لتباين الماهيتين بين الواجب والممكن[١]ويذكر القاضي عبد الجبار (أن القول بالإتحاد علي جهة اتخاذ من اتحد به هيكلا وحلا بمعني أنه حل فيه باطل، لأن الله ليس بجوهر ولا جسم واتخاذ الهيكل والمحل إنما يصح بين الجوهر والأجسام، فكيف يقال أنه جل وعز مازجه وجاوره واتحد به علي هذا الوجه)[٢].

ويكون سبب توهم الحول عند الحلوليين هو القياس الفاسد الذي يقيسون به خصائص الله المعنوية علي شيئية العوالم الإمكانية التي يعيشون فيها وعلي حدودها ومعاييرها المعلومة وفساد هذه القياس ظاهره جدا لاستحالة المقايسة بين عالم الهي روحي وإدراكي بحت وبين عالم مادي تحوطه وتقيده الحد ود و الأحياز النسبية كالمكانية والزمانية والشيئية، وتنزيه ذلك العالم الالهى الاسمي الذي قوامه ذات الله عن كل شيء. فالله الذي لا يتعدد ولا ينقسم وهو علي كل شيء قدير وليس له نقيض ولا مثيل ليتحد به أو يحل فيه منزه عن هذا الاتحاد وذلك الحلول ولا حاجه لله ولا موجب لأن يحل فيما صنع أو يتحد به، فما الكائنات بأسرها في الحق والواقع سوا أثر غير مباشر لتلك القدرة الشاملة التي أبتدعها، وما الحلول والتحيز إلا حالات خاصة بالماديات[٣] ولكون الحلول والاتحاد مستحيلان عقلا نجد القرآن الكريم ملئ بالآيات التي تدعو إلي وحدانية الله وتنفي عنه الشريك والولد والصاحبة[٤] قد اتضح إذن من جملة

(١) محمود البشبيشي ص ٨٥ .
(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل ج ٥ ص ١٢٣ .
(٣) محمود أبو الفيض : الوجود ص ٢٦٢ .
(١) أنظر المؤمنون ٩١ ، والأنبياء ٢٢ .

البواعث السالفة الذكر: بأن جوهر الوثنية قد لا يكون في عبادة هذا الصم أو ذاك ولكنه يمكن أن يكون موقفا إنسانيا معينا، يوصف هذا الموقف بأنه تأليه للأشياء أو لمظاهر جزئيه من العالم . **وأخيرا كلمة موجزة عما يترتب علي هذه الظاهرة من نتائج: ـ**

١ – صرف العقل عن التفكير الحر الصحيح:–

من الأمور التي ترتبت علي ظاهرة – تقديس الماء – صرف العقل عن التفكير الحر الصحيح وذلك عن طريق ما نسجه القائمون عليها من هالة من التقديس المغالي فيه، وارتباطها بممارسات وطقوس عجيبة ألهْوا بها السواد الأعظم من الناس خاصة الدهماء والعوام عن التفكير الحر في شأنها ووضعها في حجمها الصحيح والطبيعي .

ولم يتوقفوا عند تلك الحدود بل حرموا علي تابعيهم الاعتراض أو مجرد محاولة إبداء الرأي في حقيقة ما يفرضونه عليهم من طقوس وممارسات، بل واعتبروا من سولت له نفسه شيئا من الاعتراض خارجا عن الدين حيث تحكم الكهنة والأحبار والقساوسة والقائمين علي أمرأى الدين رقاب الناس فلا مناقشة لما يقولون، ولا نقض لما يحكمون .

فالديانة اليهودية مثلا قد حرمت علي الشعب اليهودي مناقشة الأحبار والكتبة والفريسيين . والقارئ لأسفار بني إسرائيل لن يرى ثورة من الشعب علي أنبيائهم وكهنتهم إلا في سبيل المأكل والمشرب أو ما لا قوة في سبيل الهجرة من مشقة، فكانوا كالسائمة لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، وإن أطلقت اليهودية الحرية لمعتنقيها، فلم تطلقها إلا في حدود استغلال كل الطاقات اللازمة لاستبعاد الشعوب وتقويض مقوماتها [١]ثم جاءت المسيحية هي الأخرى وتابعت بالحرمان واللعن والحرق كل من سولت له نفسه أن يعترض علي ما فرضته علي تابعيها من طقوس وممارسات مخالفة كلية لمنطق العقل [٢] .

(٢) أنظر : عباس العقاد حقائق الإسلام وأباطيل خصومة ص ١٥١ .

(١) أنظر : مدي محاربة ومقاومة الكنيسة لهم لدي يوسابيوس القصير ى ك ٧ ف ٢٤ وما بعدها ، وحنا جرجس الخضري : تاريخ الكنيسة الأول ج٤ ص٦٠٧ وما بعدها .

ولـم يختلـف الأمـر كثيـرا عـن هـذا الحـال السـالف الـذكر فـي معظـم الأديـان[١] وبذلك يولد الإنسان علي دين أبائه، ويشب علي مبادئهم ويتربي جسمانيا وعقليا متشبعا بآرائهم مؤتمراً بأمر دينهم، وما ذاك إلا لصرف قوة العقل الذهنية عن التبصر في حقائق الأمور، واستبعاد الأغلال التي قد نالت منها الكثير من جراء المكوث الطويل علي هذه الحالة من الثبات الذهني والركود العقلي .

فكمـا يقـول الـدكتور البهـي: (إن إهمـال العقـل وعـدم تدريبـه علـي التفكيـر والاسـتنتاج، وممارسـته واستخلاصـه المبـادئ العامـة مـن الجزئيـات العديـدة المنثـورة، ومباشرته أدراك سنن الكون وظواهر الطبيعة التي يعيش فيها مؤد حتما إلي ترك الغرائز تأخذ طريقا لا يتسم بالإنسانية ...وبالتالي لا يحقق هدف طبيعة الإنسان بما وجدت عليه من تركيب وازدواج[٢]وعلي العكس من ذلك فأن الفكر الحر يفتح أبواب المعرفة لذا إذا ترك العقل علي سجيته الذي أوجده الله سبحانه مؤتزرا بها والتي بها قوامه ومفخرته لا بد أن يأبي هذاالخضوع الهاوي، والرضوخ لأوامر وتكاليف مبنية علي الإرغام والإكراه علـي اعتنـاق هـذا أو ذاك لأنـه مـن العسـير علـى العقـل الـواعي والوجـدان المتحـرر أن

(٢) اللهم إلا في الدين الإسلامي ، حيث تتجلي الحرية العقلية في اصدق معانيها وعندما قرر مبادئ هي ارفع ما وصل إليه التشريع الحديث بصدد حرية العقيدة والدين منها قولة تعالي **(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)**(سورة البقرة الآية ٢٥٦) فلن يفرض الإسلام علي غير المسلمين اعتناقه ، بل ترك لهم أقصي درجات الحرية بل والحماية في مزاولة عبادتهم وإقامة شعائرهم ، وإذا اعترض معترض بأن الإسلام فرض ـ علي الناس بالسيف ، فإنما هي الحرب لرد العدوان حيث قال **(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ** (سورة البقرة الآية ١٩٠ ، والحرب في حالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامي والخروج عن العرف والتقليد الدوليين في حماية الأرواح قال تعالي **(وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**) سورة التوبة الآية ١٢٠. (انظر محمد فؤاد الهاشمي الأديان في كفة الميزان ص ١٦٦) .

(٣) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر : مشكلات الحكم والتوجيه ص ٢٧٥ .

يطمئن لشيء أو مبدأ يجبر معتنقيه علي الأيمان به، كما أنه عندما تزال من علي كاهل العقول ما يصرفها عن التفكير الحر ما تلبث أن تتراءى الحقائق أمامها الواحدة تلو الأخرى، ثم تتزامي في أحضان الحقيقة التي ما هي إلا سلسلة واضحة لا تعقيد فيها ولا تكليف ولا إكراه، التي تحمل في ظاهرها وباطنها ما يتفق والفطرة البشرية التي فطر الله عليها خلقه .

٢- شيوع الأساطير والخرافات:-

الأسطورة ما هي إلا محاولة تقديم رؤية استنباطية للأشياء أو رؤية حدسية لصورة هذه الأشياء .فالأسطورة هي عمل ابداعى انسانى محض . كما أن الأسطورة ظاهرة دينية لأنها موضع اعتقاد فلدى عدد كبير من الشعوب البدائية يطلع الشباب في أثناء طقوس التعميد علي القصص الأسطورية وعلي العادات التقليدية، أي أنهم يطلعون علي تراث ديني بأكمله لذا فالأسطورة وليدة الطقوس الدينية كما يقول بيرار(١).

أما الخرافة فالمعني الوجودي لها هي استباق الخيال الإنساني للواقع الموضوعي. والخرافة تشكل قاعدة إيمانية تجعل جميع أفراد المجتمع الواحد متشابهين فيما بينهم ، وقد التفوا جميعا حول محاور أساسية وطيدة هتلك الخرافات التي تحتل مكانا راسخا في القلوب . وليس هناك أي نوع من التناقض بين شيوع الاعتقاد الديني وبين شيوع الإيمان الخرافي، ولعل من غير المبالغ فيه القول بأن جميع المجتمعات الإنسانية عبر عصور الحضارة قد شاهدت ذلك التداخل بين المعتقدات الدينية وبين المعتقدات الخرافية، وفي الحقيقة أن قشرة الواقع حتى في أكثر المجتمعات مدنية وتحضرا، إنما هي قشرة رقيقة إذا ما قيست إلي سمك قشرة الخرافة، فالوهم في حياة المجتمعات أكبر حجما بكثير من حجم الفكر والمنطق والواقع(٢).

وكان من نتاج هذه الأساطير والخرافات تلك الطقوس والممارسات، فإن الأمر الذي لا سبيل إلي إنكاره هو أن الطقيسه قد صارت لدى الناس بمثابة طبيعة ثانية ثم ما لبث أن غلبت الوسائل علي الغايات، فأصبحت القرابين والطقوس هي وحدها المعيار الحقيقي لأخلاقيات الناس، ومؤدي ذلك أن يتوارى الضمير أمام الظواهر وأن تختفي المبادأة الذاتية أمام المراسيم .

(١) أنظر : روجيه باستيد ص ٧٨ (مبادئ علم الاجتماع الديني) ترجمة د / محمود قاسم .

(٢) أنظر: هذه الأمر بتوسع في معتقدات وخرافات : ليوسف ميخائيل ص ٩٢ وما بعدها .

والحق أنى اعتقد: أن المرء إذا ما نقل مركز القوة الفاعلة إلي أشياء بعينيها، واعتقد أن تلك الأشياء أو الأقوال قد حظيت بقوة وفاعلية في ذاتها بغير استناد إلي مشيئة إلهية تعطي أو لا تعطي، وتمنح أو لا تنمح حسب رغبتها ووفق أرادتها فإن تلك الأشياء أو الأقوال تعد عندئذ من قبيل السحر [1] وممارساته ولا تعد من الدين في شيء .ولا يستثني من ذلك تلك الأشياء التي تعتبر من صميم الدين .

فإذا ما قام شخص يحمل صورة أو أيقونه، أو إذا قام بترديد بعض الآيات الدينية (من التوراة إذا كان يهوديا،أو من الإنجيل إذا كان مسيحيا، ومن القرآن إذا كان مسلما) . وهو يؤمن بأن تلك القراءة ستجلب النوائب علي عدوه وستضره، أو ستجلب له النفع المادي فإن مثل تلك القراءات والممارسات لا تعتبر من الدين في شيء وكذا يقال عن الأشياء التي يحملها البعض في جيوبهم أو يعلقونها أو يتبركون بها ومن ثم يقدسونها كالظاهرة التي بين أيدينا في هذا البحث (تقديس الماء)، وذلك لأنها تكون قد خرجت عن وظيفتها الدينية وهي أن تقرأ وأن يستفاد منها سلوكيا أو روحيا ن أو في دعم علاقة الإنسان بخالقة وتحقيق صلاحه في الدنيا، وإنتاجه لصيغة سلوكية جيدة وصالحة في الحياة إلي وظيفة أخري هي جني فائدة أو تغلب علي عدو أو قهر لمصاعب في الحياة أو الاستشفاء منها أو كل ما هو من قبيل ذلك .

فالواقع أن ضروب السحر كثيرا ما تلتبس بالدين، فإذا هم نقلوا محور القول أو مصدرها من الخالق إلي الأشياء وإذا هم رددوا الكلمات بغير أن يفهموها أو أن يدركوا معانيها أو أن يوظفوها عقليا وتأمليا وإنما اعتقدوا أن الترديد في حد ذاته يحمل القيمة كل القيمة، وهم ذاهلون وشاردو الذهن أو لا يمعنون الفكر أو يمعنون النظر فيما يرددون، فهم إذن في تلك الحالات يمارسون السحر . ومن جراء ذلك لقد حارب الإسلام

(١) السحر هو من يزعم إحداث أثار مضادة لقوانين الطبيعة بواسطة طقوس وأعمال خاصة كالإشارات والرقي وتعتمد الطقوس السحرية علي قدرة السحرة (الصحاح في اللغة والعلوم معجم وسيط مادة سحر) ص ٤٦٢ وقبل السحر إخراج الباطل في صورة الحق وهو في أصل اللغة الصرف وسمي سحر لأنه يصرف الشيء عن جهته ، وقيل : هو عمل يتقرب به إلي الشيطان ، ومنه إن من البيان لسحرا قيل معناها أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف قلوب السامعين إليه ويذمه فيصدق فيه حتى يصرف قلوبهم أيضا عنه (أنظر محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية ص ٤٠٠، وأنظر أيضا معجم العلوم الاجتماعية ص ٣١٤) .

(لا المسلمين) الجهل وتتبعه في كل وكر من أوكاره، وفي كل لون من ألوانه، حاربه بالدعوي إلي توحيد الله وجهل الشرك والوثنية وبث في الأنفس والأفاق دلائل التوحيد ولفت نظر الإنسان إليها وحثه علي النظر والتفكير فيها ليؤمن أولا بأن العظمة التي تخضع لها الرقاب، والعلم الواسع الذي لا يعزب عنه شيء، والقدرة النافذة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ليست لأحد سواه .

وبذلك يتجه إليه وحده، ويقبل علي عمله متعمد عليه وحده في تذليل ما قد يعترضه في طريقه من صور العظات الزائفة أو الادراكات المنحرفة التي ينسجها التخيل الفاسد، كما أنكر أن يسلم الإنسان عقله لغيره، وأن يقف في عقائده ومعارفه العامة وسبل حياته عندما ينبت في زوايا الأوهام والخرافات وخير دليل علي ذلك ظاهرة طبيعية كالماء بما يحوى في ذاته من فوائد جمة للكائنات علي اختلافها،نجده تحت مظلة الأوهام والأساطير والخرافات يستخدم كوسيلة أساسية وضرورية في بعض الممارسات والأديان الضالة كالأديان السرية[1]إذ نري طقسية الماء أمر ضروري وملازم لتلك الأديان.

(١) وقد ظهرت هذه الأديان كرد فعل للتصور الذي شاب الأديان التقليدية الرسمية أو شبة الرسمية في العالم اليوناني ، والتي اهتمت أساسا بمظاهر الحياة الدنيوية ، فأتت أديان الأسرار لتتبنى فكرة الخلاص الروحي وقد علب عليها الطابع الشخصي الفردي لذا كانت منغلقة علي من يتتبعها فقط ، وبالتالي تحولت طقوسها إلي طقوس سرية / تحتوي علي أشكال غريبة من الرقص والموسيقى والتضحية بالحيوانات ثم استخدام دمها في التعميد والتطهير بالماء ... وقد تسربت هذه الأديان إلى المسيحية لمعاصرتها إياها فانتقلت العديد من طقوسها إلي المسيحية كالتطهير بالماء والتعميد...أنظر: حسين الشيخ ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ ص ٥٦ وما بعدها .

وأخـــيراً: بعد الطواف في جوانب موضوع (الماء المقدس عند أتباع الأديان) وعرض لأصوله ومنبته ثم تأصيله و انتشاره في رحلة بحث جادة لاستجلاء شيء من الحقيقة أدعو الله تعالي أن أكون قد وفقت فيها – وبعد لم يتبق إذن إلا أن اذكر خلاصة ما توصلت إليه بعد انتهاء هذه الرحلة فيما يلي:-

١- الأهمية العظمي للماء كعنصر طبيعي أوجده الله ملازماً للكائنات الحية من بدايتها إلي نهايتها، فهو مادة الحياة وإكسيرها السحري الذي لولاه لاستحالت الحياة علي سطح هذا الكوكب لذا خصه الله سبحانه بالذكر في كتابه العزيز أكثر من مرة تأكيداً علي فضله فالماء ملازم عقلا وفكرا وطقسا للإنسان ولا أعتقد بوجود أي أمريء علي هذا الكوكب الأرضي ناضج عقليا لا يعرف ما للماء من أهمية كبري في حياة الكائنات الحية .

٢- ظهور العديد من النظريات لتفسير أصل الماء علي سطح الكرة الأرضية، ومن هذه النظريات نظرية المياه الكونية المنشأ ونظرية المياه أرضية المنشأ .

٣- إن الإنسان هو ذلك العالم الصغير، الكبير بمفارقاته وتلاوينه وقوته وضعفه وتأثيره وتأثره بمن حوله وبالطبيعة ككل وهو وحده لا تقبل الفصل في هذا الكون الفسيح، يؤثر فيه ويتأثر به، هنالك ترابط روحي لا بل حتى مادي ما بين الإنسان والطبيعة التي يعيش في كنفها فهذا الاتصال والترابط أو التعايش ما بين الإنسان والطبيعة بجميع مظاهرها وعناصرها المختلفة هو المجال الواسع الذي ترعرعت فيه بذرات الفكر الإنساني إلي أن وصلت إلي ما هي عليه الآن .

٤- بغض النظر عن الممارسات والطقوس الكهنوتية المصاحبة للماء فإننا نجد وبجلاء وعلي مر الزمن واختلاف الأماكن، أن الماء شغل حيزا كبيرا من العقل الروحي والديني لكثير من معتقدات البشر وأديانهم، وأي باحث في مقارنة الأديان سيدرك عند تتبعه للنصوص الدينية الموقع المتميز الذي احتله الماء بها . فلا تكاد تخلو عقيدة دينية من فكرة تقديس الماء بطريقة معينة سواء فكرا أو طقسا .

٥- إن الماء موغل في تاريخ الحضارات القديمة فالبابليون ومن قبلهم السومريون والأكاديون وغيرهم كانوا يرون في الماء مصدر الحياة . فغذاؤهم من الزرع والصيد في

الأهوار والأنهار، وبيوتهم تبني مما تنبته الأهوار، والطمي الذي كان يحمله النهران يوفر لهم الأرض التي يزرعون ويسكنون فالمياه تتهددهم بفيضاناتها، كما يقفزون فيها ليخرجوا نظفاء مما علق بهم ماديا وروحيا والحق: أنه في ظل تلك الحضارات القديمة حيثما يولي المرء وجهه فثمه الماء .

٦- كما أن الماء الحي (مياهي) شعار وصفة ملازمة من الناحية الفكرية والطقسية للديانة المندائية، حيث أن يردنا أهمية رمزية كبيرة في عملية الخلق وانبثاق الحياة والعوالم فهي تعتبر من صفات الخالق المقدسة والتي انبثقت في آخر يوم من أيام الخلق .

٧- كما أن الماء عبر صفحات البحث ينظر إليه بمنظار مقدس ويوضع في مرتبه عالية في الممارسات والفكر الديني اليهودي . حيث كان لموضوع الطهارة والنجاسة شأن عظيم في الشريعة اليهودية والمجتمع اليهودي . كما ألزمت الشريعة اليهودية كل من يهتدي باليهودية – كما يدعون – أن يمر بطقس ديني يفترض الانغماس في الماء لذا تجمع عدد كبير من اليهود حول يوحنا بن زكريا . حيث غطسهم في ماء النهر ليطهرهم قبل أن يعظهم

٨- أن طقس الاغتسال بالمياه الجارية (التعميد) والذي يأخذ في رأيي أشكالا متعددة بين أقوام وأديان وشعوب العالم،إلا أن جوهرة واحد وهدفه الرئيسي هو التطهير واكتساب منحة الحياة والاتصال بالقوي الحياتية لما للماء من أهمية بالغة، والكثير من هذه الأديان تعتقد بوجود القوى الخفية التي تحمى هذه المياه وتعطيها البركة الإلهية والقوة علي الانعاش والتواصل مع الحياة .

٩- يذهب أغلب المسيحيين الممثلين في طائفة الأرثوذكس والكاثوليك إلي ابعد ما يتصوره العقل في حجم البركات والفوائد التي تحظي بها طقس المعمودية حيث أخرجوها من نطاق استيعاب العقل البشري لها وجعلوها سرا مقدسا من أسرار الكنسية السبعة .

١٠- يعتقد معظم المسلمين (خاصة المنقطعين للعبادة في الحرم المكي والعاكفين) بأن في ماء زمزم أسراراً لا يجدون لها تفسيرا، فيكتفون باعتبارها من الغيبيات التي توجب الاستنكار والدهشة فماء زمزم الذي يشربونه في إنقطاعهم للعبادة تتغير خواصه فيصبح كأنه لبن أو عسل مصفي .

١١- كما نستنتج بأنه يجب إلا نعول كثيرا علي القصص والمرويات التي تنسب إلي زمزم أو غير ها وإن حدث منها شيء بالفعل فما حصولها إلا من قبيل النذر واليسير وليست قاعدة إلزامية . كما أن حدوثها ليس بمستبعد عن إرادة الله سبحانه وقضاءه المبرم منذ الأزل في تحديد زمان ومكان حدوثها .أما أن نعول الأمر علي خاصية اختص بها الماء فهو ابعد ما يكون عن منطق العقل والعلم فهو في ذاته لا يحمل أي خاصية مغايرة اللهم إلا إذا اكتسب القادسية بناء علي قداسة الأشخاص الذين ارتبط ذكرهم بذكر هذا الماء كبئر زمزم .

١٢- وجود قاسم مشترك بين معتنقي تلك الظاهرة (تقديس الماء) عبر الفكر الديني بأكمله، تمثل هذا القاسم المشترك في توافر عدة بواعث رئيسية يعد لها فضل السبق في نشأة تلك الظاهرة والعمل على شيوعها وتثبيت اواصرها في وجدان السواد الأعظم من الخلق، فضلا عن تواجد أو استحداث العديد من الأمور والسلوكيات التي ترتبت علي وجود مثل هذه الظاهرة .

١٣- الإنسان في مستواه العقلي والثقافي، وفي مركزه المادي والاجتماعي فلابد أن تلمع في أعماقه ومضة التدين وتنعكس علي سلوكه ممارسات هذا الدين فقد يستغني في حياته عن مظاهر الحضارة والعمران، ويتحلل في تفكيره من مبادئ الفلسفة وقوانين المنطق ولكن سيظل دائما صوت التدين يهمس بداخله لأنه جزء من النفس لا ينفصل وأثر علي السلوك لا يغيب .

١٤- توافر العديد من الأغراض والبواعث التي شجعت وساعدت علي نمو وتأصيل تلك الظاهرة والتي يعد من أهمها: الجدل والمراء بين رجال الدين أنفسهم لاسيما الرؤساء وطلاب الرئاسة منهم، ومنها الجهل فإن المتصدي للتعليم أو الفتوى قد يجهل مسائل فيتعرض لبيانها بغير علم .

١٥- ومن النتائج تعلق كثير بما يسمي بالغيب المطلق: الغيب المرتبط بقوى الطبيعة حيث لم يكن في إمكانهم التفريق بين عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة فصبوا خيالهم المزود بمنافع وآلام تجاربهم الواقعية في أشكال مقدسة وكان في مقدمتها ظاهرة تقديس الماء .

١٦- انخداع الناس وافتتانهم بقول الأكثرية إذ ينخدعون بقول الأكثرية التي تتبني مذهبا ومعتقدا ما فيصور لهم عقلهم الذي لا يأمن الخطأ بأن الحق لابد أن يكون معها ونابع منها بناء علي أنه لا يمكن أن تتخدع وتضل كل هذه الجموع والحق بخلاف هذا كما علمنا خير معلم (القرآن الكريم) .

١٧- خطورة التقاليد وفرضيتها التي سرعان ما تدخل الإنسان في طلاسم الجمود الذي يفضي إلي أحالة الأفكار لقواعد ميتة بغير روح، والوجدان إلي مشاعر خاوية من الأصالة والصدق، ويحيل الأعمال إلي أداء آلي خال من الحياة والإبداع .

١٨- نستنتج أيضا بأن القوة الخيالية عند بعض العاطفيين الذين يعجبون بألوان بهلوانية خرافية جعلتهم يتخيلون مجموعه من العجائب والغرائب فيما يتعلق بأوسع نعم الله علي الأرض ألا وهو الماء فما أبعدهم بعدا حقيقيا عن الصواب .

١٩- كما نستنتج بأن الديانة الأحدث، بالرغم مما تزعمه من عدم صلتها بالعقائد والأساطير المتقدمة عليها إلا أنها في الحقيقة تأخذ هذا التراث الديني الأسبق وتصيغه من جديد مع إضافة ما يلزم من إضافات جديدة تتناسب مع المستجدات والتراكمات الفكرية المتجددة وما يلزم من حذف ما استهجنته الطبيعة الدينية من عناصر بالية بدائية .

وأخير يمكن أن نخرج بأن جوهر الوثنية قد لا يكون في عبادة هذه الصنم أو ذاك، ولكنه يمكن أن يكون موقفا إنسانيا معينا يوصف هذا الموقف بأنه تأليه للأشياء أو لمظاهر جزئية من العالم .

أهم المصادر والمراجع

أولا المصادر

١- القرآن الكريم .

٢- كتب السنة النبوية .

(أ) الإمام البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) . تحقيق محمد علي قطب المكتبة العصرية بيروت لبنان

(ب) الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسي بن سورة) الجامع الصحيح: وهو سنن الترمذي . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط درا الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولي سنه ١٩٨٠ .

٣- الكتاب المقدس بعهديه (القديم والجديد) طبعة جمعية التوراة الأمريكانية ط ١٩٥٠م

ثانيا أهم المراجع

٤- ابن النديم:- الفهرست دار المعرفة ببيروت ١٩٧٨م

٥- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزري الملقب بعز الدين المعروف بابن الأثير / البداية والنهاية .

٦- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل بن منظور) لسان العرب طبعة جديدة محققة أصدرتها دار المعارف في سلسلة شهرية ١٩٧٩م.

٧- أحمد حجازي السقا (دكتور): الصابئين الأمة المقتصدة في التوراة والإنجيل والقرآن .

٨- إديسون ليتش: عقيدتنا اللاهوتية ترجمة فهيم عزيز ص ١٩٩٨م .

٩- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني) الأغاني تحقق محمد كيلاني ط دار المعرفة .

١٠- الأب بسترس البولسى: اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر (الأسرار والحياة الأبدية قدم له المطران يوسف رياط ١٩٨٨م منشورات المكتبة البوليسية بلبنان

١١- البهي (محمد البهي) (دكتور): الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ط دار الشروق.

١٢- جراسيموس مسرة: الأنوار في الأسرار بدون ذكر للطبعة والتاريخ

١٣- الإمام الجرجاني (السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين الجرجاني) التعريفات طبعة الحلبي ١٩٣٨م .

١٤- جوزيفوس: حروب اليهود المجلد الرابع .

١٥- حبيب جرجس:- أسرار الكنيسة مكتبة المحبة ١٩٧٩م .

١٦- حسين الشيخ: ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ دار العلوم ببيروت١٩٩٦م .

١٧- حنا الحضري: كتاب جون كلفن ط أولي ١٩٨٩م دار الثقافة.

١٨- دار الثقافة المسيحية: دستور الكنسية الإنجيلية بمصر ط أولي ١٩٨٥م وعلم اللاهوت النظامي مطبعة دار الجيل ط ١٩٧١ موسوعة الأديان السماوية والوضعية (الديانة اليهودية) دار الفكر اللبناني

١٩- ديورانت (ول ديورانت): قصة الحضارة (الشرق الأدنى) ترجمة محمد بدران مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٠م .

٢٠- الرازي: (فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي) مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير توزيع دار الباز مكة المكرمة ط دار الفكر ١٩٨١م.

٢١- رشاد علي عبد العزيز موسي (دكتور) علم النفس الدعوة بين النظريةوالتطبيق . الناشر المكتب العلمي للكمبيوتر ط ١٩٩١م.

٢٢- روجيه باستيد: مبادئ علم الاجتماع الديني . ترجمة د/ محمود قاسم مكتبة الانجلو المصرية .

٢٣- رؤوف شلبي (دكتور) التفكير الديني في العالم قبل الإسلام .دار الثقافة الدوحة.

٢٤- زكي شنودة: المجتمع اليهودي . الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة بدون تاريخ للطباعة .

٢٥- سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم (من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الأسكندر الأكبر) ط ثانية منقحة ١٩٨٤م الناشر دار النهضة العربية .

٢٦- سليم حسن: موسوعة مصر القديمة (عصر ما قبل التاريخ) الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠١م.

٢٧- سليمان مظهر: قصة الديانات / الوطن العربي القاهرة . بيروت قصة العقائد بين السماء والأرض ملتزم الطبع والنشر دار النهضة العربية مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٢.

٢٨- محمد عبد الغني شامة(دكتور) الحسد في القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة ط أولي ١٩٩٢م.

٢٩- الشهرستاني: (أبو الفتح بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني) الملل والنحل . تحقيق محمد سيد كيلاني . مكتبة ومطبعة مصطفي الحلبي ١٩٧٦م.

٣٠- صمويل كريمر: ألواح سومر ترجمة د/ طه باقر / مراجعة د/ أحمد فخري مكتبة المثني ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة .

٣١- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ج ٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٣٩م.

٣٢- القاضي / عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل تحقيق محمود محمد الخضري . مراجعة إبراهيم مدكور إشراف د/ طه حسين ز الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٨٥م.

٣٣- عزيز سباهى: أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية . الناشر دار المدى للثقافة والنشر ط ثانية ١٩٩٩م سوريا . دمشق.

٣٤- د/ عصام الدين محمد: ديانات ومذاهب أهل العالم . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية .

٣٥- العقاد (عباس محمود العقاد) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه .دار نهضة مصر للطبع والنشر – إبراهيم أبو الأنبياء . دار الكتاب العربي ببيروت ط ١٩٦٧م.

٣٦- عماد زكي البارودي: الأعجاز العلمي في القرآن والسنة . المكتبة التوفيقية .

٣٧- فاضل علي عبد الواحد: كتاب من سومر إلي التوراة . سينا للنشر.
٣٨- فراس السواح . مغامرة العقل الأول .
٣٩- الليدى دراور .الصابئة المندائيون: ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي بغداد١٩٦٩م.
٤٠- محمد رشيد رضا . تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
٤١- محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع ـ دار المعرفة الجامعية ط ١٩٨٨م.
٤٢- محمد عمر حمادة: تاريخ الصابئة المندائيين . دار قتيبة .
٤٣- محمد فؤاد الهاشمي:الأديان في كفة الميزان ط ١٩٨٦م الناشر دار الحرية.
٤٤- محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة . ط دار الشروق .
٤٥- محمود أبو الفيض: الوجود . نشر المكتبة الفضية بالقاهرة – وحدة الدين والفلسفة مجلد أول في تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلي الآن . دار العهد الجديد للطباعة ١٩٥٨م.
٤٦- محمود البشبيشي:الفرق الإسلامية ـ المكتبة التجارية ألكبري بمصر ١٩٣٢م.
٤٧- مختار التهامي(دكتور): الرأي العام والحرب النفسية ط دار المعارف ١٩٧٢م.
٤٨- مرقس خزام: شرح التعليم المسيحي لطلبة المدارس (الصلاة والأسرار) ج٣ط١٩٣٩م.
٤٩- القس/ مكرم نجيب: المعمودية بين المفهوم والممارسة ـ دار الثقافة مطبعة دار نوبار .
٥٠- نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين ـ قاموس الكتاب المقدس ط٦ مطبعة بيروت ١٩٨١م.
الأب / نعمة الله العندارى:سلاحك أيها المسيحي ط١٩٢٩م جونية لبنان.
٥١- الندوة العالمية للشباب الإسلامي . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ـ الرياض ١٩٧٢م.

٥٢- الأنبا يوأنس: الكنسية المسيحية في عصر الرسل ط٣ ١٩٨٧م مطبعة الانبارويس.

٥٣- يوحنا سلامة: اللآليء النفسية في شرح معتقدات وطقوس الكنسية ج٢ مطبعة عين شمس .

٥٤- يوسابيوس القيصري: تاريخ الكنسية . ترجمة القمص مرقس داود مكتبة المحبة ط الثانية ١٩٧٩م.

٥٥- يوسف ميخائيل: معتقدات وخرافات . دار النهضة العربية.

٥٦- هولنكرانس: قاموس مصطلحات الاثنولوجيا . ترجمة د/ محمد الجوهري، /حسن الشامي .

٥٧- هيكل (محمد حسنين هيكل): حياة محمد . الهيئة المصرية للكتاب ط٢٠٠١م مكتبة الأسرة .

٥٨- ياقوت الحموي . معجم البلدان ط ١٩٠٦م.

٥٩- المعاجم – الصحاح في اللغة العربية والعلوم .معجم وسيط – محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية– معجم العلوم الاجتماعية .

مواقع علي شبكة الإنترنيت

1- Http / www.almvak.com /wk/archive/index.nhn/t.fohtmi.

2- http/www.Islampedia.com/mie2/mawz/ s.htmi.

3- http:/www.madaenunion.org/htstory/a k history006 htm

4- http:/www.mandaenunion.org/history/ar.history011.htm

5- htto:www.alwatam.com.sa/daily
200s_06_01/readeri.htm.11/9/2006